قصر الجليد

رواية

- **Author** : Tarjei Vesaas
- **Title**: Snow Palace
- **Translation: Mostafa Mahmod**
- **First Edition**: 2012
- **Cover Design by**: Amr ElKafrawy

- **المؤلف**: **تارجى فيساس**
- **العنوان** : **قصر الجليد**
- **ترجمة** : **مصطفى محمود**
- **الطبعة** : **الأولى** 2012
- **تصميم الغلاف**: **عمرو الكفراوى**

رقم الإيداع:
٢٠١٢ / ١١٦٣٥
الترقيم الدولي : ISBN
977-6148-78-6

FUGLANE Copyright © Gyldendal Norsk Forlag AS 1957
[All rights reserved.]

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه. أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No Part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form, or by any means without prior permission in writing from the publisher.

Afaq Bookshop & Publishing House

75 QASR – ALAINI ST., in Front of Dar Al-Hekma, - CAIRO – EGYPT
Tel: +202-2795-3811 Fax: 00202-2795-4633
E-mail:afaqbooks@yahoo.com – www.afaqbooks.com

تارجى فيساس

قصر الجليد

رواية

ترجمة
مصطفى محمود

آفاق للنشر والتوزيع

صدرت هذه الترجمة بدعم مالي من مؤسسة نورلا النرويجية

This Translation has been published with financial support of «NORLA».

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

فيساس، تارجي.

قصر الجليد: رواية

تارجي فيساس – ط1 القاهرة – دار آفاق للنشر والتوزيع – 2012

210 ص ، 20 سم.

رقم الإيداع 11635 / 2012

الترقيم الدولي 6 – 78 – 6148 – 977

1 – القصص الإنجليزية

أ – محمود، مصطفى (مترجم)

ب – العنوان

الجزء الأول

١

سيس

فتاة صغيرة، بيضاء الجبين، يزعجها الظلام. عمرها أحد عشر عاماً. اسمها سيس.

الوقت بعد الظهيرة بقليل، لكنه ظلام فعلي. صقيع غزير في أواخر الخريف. نجوم غاب عنها القمر، ولم تكن هناك ثلوج تمنح قبساً من نور، بل ظلام كثيف، رغم النجوم. وسكون تام يخيم على كل شيء يمكن أن يرتعش في هذه اللحظة في الغابة.

فكرت سيس في أشياء كثيرة وهي تمشي وقد حزمت أمرها تجاه الغابة. كانت في طريقها إلى آن، فتاة لم تعرفها من قبل، تلتقي بها للمرة الأولى؛ في طريقها إلى شيء مجهول، كان هذا هو السبب في انفعالها.

أخذت المبادرة. ضجة عالية قطعت أفكارها، أربكت توقعاتها؛ ضوضاء مثل فرقعة طويلة ممتدة، تتزايد حركتها أكثر بينما يتلاشي الصوت بعيداً. جاء الصوت من تكسر الجليد أسفل البحيرة. لم يكن شيئاً خطراً، في الحقيقة كانت تلك أنباء طيبة: فالجلبة تعني أن الجليد أقوى قليلاً. إنه يفرقع كطلقات نارية، يفرقع محدثاً تشققات طويلة، تضيق مثل

حد سكين، من السطح إلى أسفل نحو الأعماق ـ لكن الجليد كان أقوى وآمناً أكثر كل صباح. هناك فترة طويلة غير عادية من الصقيع هذا الخريف.

برد قارس. لكن سيس لم تكن خائفة من البرد. لم تكن هي التي تخشى البرد. لقد بدأت السير أثناء الضوضاء في الظلام، لكنها خطت إلى الخارج بثبات عبر الطريق.

لم يكن الطريق إلى آن طويلاً. سيس تألف هذا، كان هو الطريق نفسه الذي تذهب منه إلى المدرسة، فقط يزيد عنه طريق جانبي. فهي يُسمح لها بالذهاب بمفردها من هذا الطريق، حتى لو لم يعد مضيئاً. لم يكن الأب والأم يتوتران من مثل هذه الأشياء. إنه الطريق الرئيس، هكذا قالا حينما غادرت هذا المساء. هي تركتهم يقولان ذلك. إنها تخاف من الظلام ذاته.

الطريق الرئيس. رغم ذلك لم يكن مسلياً أن تمشيه وحدك الآن. رفعت هامتها بجرأة من أجل ذلك. دق قلبها برفق مع دفء بطانة معطفها. كانت أذناها متنبهتين، لأنها عرفت أن هناك آذاناً صاغية أكثر تنبهاً، تنصت إليها.

هذا هو السبب في أنه كان يتعين عليها أن تخطو إلى الخارج بحزم وثبات على أحجار الطريق الصلبة: كانت قعقعة خطاها مسموعة على الطريق. إذا استسلمت إلى إغراء أن تسير على أطراف أصابعها لانتهت، بعيداً عن حماقة أن تبدأ في الركض. حينئذ، سرعان ما ستركض في ذعر.

كان على سيس أن تذهب لترى آن هذا المساء. وينبغي أن يكون لديها الكثير من الوقت للتفكير في الكيفية التي طالت بها الليالي. يأتي الظلام مبكراً، وبالتالي يمكن أن تمكث سيس مع آن لفترة كافية، ويظل

باستطاعتها العودة إلى البيت في وقت نومها المعتاد.

أتعجب، ما الذي سأجده في الخارج عند آن. أنا متأكدة أنني سوف أجد شيئاً ما، كنت أنتظره طوال الخريف، منذ أول يوم أتت فيه آن حديثاً إلى المدرسة. لا أعرف لماذا.

كانت فكرة مقابلة إحدانا للأخرى حديثة تماماً، طرأت اليوم فقط بالفعل. بعد تجهيز طويل منذ أن نبتت الفكرة في الرأس أولاً.

في طريقها إلى آن، ارتعشت مخيلتها بالتوقعات. اخترقت الرياح الثلجية الباردة جبينها الناعم.

٢

آن

في طريقها نحو شيء مثير... فكرت سيس فيما عرفته عن آن، وهي تسير في صلابة واستقامة، تحاول أن تطرد الخوف من الظلام.

لم تعرف الكثير. ولن تكون هناك فائدة من سؤال الآخرين هنا؛ فمن غير المحتمل أن يقدروا على أن يخبروها بالمزيد عن آن.

كانت آن جديدة جداً هنا. أتت إلى المنطقة في الربيع الماضي من مكان آخر بعيد تماماً، لذلك لم يكن هناك اتصال بين الاثنين. قيل إنها جاءت في الربيع الماضي بعد أن صارت يتيمة. سقطت أمها فريسة للمرض وتوفيت بشكل ما في الحي الذي كانوا يسكنون فيه. لم تكن متزوجة، ولم يكن لها أقرباء هناك، لكن هنا في هذه المنطقة لديها أخت أكبر، لذلك جاءت آن إلى خالتها.

كانت خالتها تعيش هنا لزمن طويل. لم تعرفها سيس، على الرغم من أنها عاشت بالقرب منها تماماً. تتولى تدبير شؤونها بمفردها في كوخ صغير، تديره بأفضل ما تستطيع. نادراً ما يراها أحد إلا في طريقها إلى المتجر. سمعتها سيس تقول إنه قد تم الترحيب بآن كثيراً في منزلها. ذهبت سيس إلى هناك مع أمها ذات مرة؛ فقد احتاجت أمها المساعدة في شيء من أعمال الخياطة. كان هذا منذ عدة سنوات مضت، قبل أن تتعرف

على وجود آن. تستطيع أن تتذكرها، شخص وحيد يجلس هناك مفعماً بالطيبة. لم يتحدث أي أحد بشكل سيئ.

وحدث الشيء نفسه مع آن حينما حضرت: لم تلتحق بمجموعة البنات مباشرة، كما توقعوا وتمنوا. وقع نظرهم عليها على الطريق وعند الأماكن الأخرى حيث لا يملك المرء إلا أن يقابل الناس. نظرتا إلى بعضهما البعض، مثل الغرباء. لم يكن هناك ما يمكن فعله إزاء ذلك. فهي لم يكن لها أبوان، ووضعها هذا تحت إضاءة مختلفة. هالة لم يستطيعوا تفسيرها تماماً. وعرفوا بالمثل أن هذا الموقف الغريب سوف ينتهي قريباً: في الخريف، سوف يتقابلوا في المدرسة، وسوف ينتهي هذا الأمر.

لم تأت سيس بحركة لتقترب من آن خلال الصيف، أيضاً. لقد رأت آن حينئذ ومرات أخرى مع خالتها العجوز الطيبة. نظرت كل منهما إلى الأخرى في دهشة وتحسستا الماضي. لم تعرفا لماذا اندهشتا، لكنهما اندهشتا لسبب ما أو آخر...

قيل إن آن كانت خجولة. بدت مضطربة. تطلعت كل الفتيات إلى مقابلة آن التي كانت خجولة في المدرسة.

تطلعت سيس إليها لسبب خاص: كانت هي القائد المعترف به في أوقات الراحة الصاخبة. اعتادت أن تكون الشخص الذي يطرح الاقتراحات؛ لم تفكر في غير أن تكون هكذا، وهي لم تكره ذلك. تطلعت أن تكون القائد، حينما وصلت آن، وكان عليها أن تساندها.

وحينما بدأت المدرسة، تجمع الفصل كالمعتاد حول سيس، الأولاد

إلى جانب الفتيات. عرفت أنها ستتمتع بالقيادة هذا العام كذلك، ربما تبذل مجهوداً لتحافظ على مكانتها.

كانت آن واقفة خجلى على مسافة قريبة. نظروا إليها بحساسية، وقبلوا بها في الحال. لم يظهر أي شيء غير معتاد يتعلق بها. فتاة جذابة. محبوبة.

لكنها ظلت في مكانها. قاموا بمحاولات صغيرة لجذبها إليهم، لكن دون جدوى. وقفت سيس في منتصف مجموعتها تنتظرها، ومر اليوم الأول.

مرت عدة أيام. لم تظهر آن أية علامة للاقتراب. أخيراً، توجهت سيس إليها وسألتها: «ألن تنضمي إلينا؟»

ردت آن بهزة من رأسها.

لكن سرعان ما أدركتا أنهما أحبتا بعضهما البعض. التمعت نظرة شغف فيما بينهما: ينبغي أن أقابلها! مرتبكة، لكن فيما وراء الشك.

كررت سيس في دهشة: «ألن تنضمي إلينا؟»

ابتسمت آن في حرج: «لا».

«لكن لماذا؟»

مازالت آن تبتسم محرجة: «لا أستطيع».

في الوقت نفسه، بدا لسيس أنهما كانتا تلعبان كلتاهما لعبة ما للإغواء.

«ما الأمر معك؟»، هكذا سألت سيس بفظاظة وحماقة، وندمت في الحال. لم تنظر آن كما لو لم يكن أي شيء يهمها. على العكس.

توردت آن. «لا، ليس الأمر كذلك، لكن...»

«لا، لم أقصد شيئاً مثل هذا بالمثل. لكن سيكون رائعاً أن تنضمي إلينا».

قالت آن: «لا تطلبي مني هذا مرة أخرى».

شعرت سيس كما لو أن مياهاً باردة قد صُبت عليها، وألزمتها الصمت. مجروحة الكبرياء عادت إلى رفاقها وأخبرتهم.

هكذا لم يسألوا آن ثانية. تركوها لتقف بمفردها، ولا تشارك في ألعابهم. قال بعضهم إنها مغرورة، لكن هذا لم يكسبها شيئاً، ولا مازحها أحد، فلم يكن هناك ما يضع نهاية لشيء مثل ذلك.

في الفصل، اتضح على الفور أن آن لم تكن الأذكى. لكنها لم تكن مُدَّعية، ومن ثَمَّ أضفوا عليها احتراماً على مضض.

علمت سيس بكل هذا. شعرت أن آن كانت قوية في موقعها وحيدة في فناء المدرسة غير بائسة ولا مثيرة للشفقة. استخدمت سيس سلطتها لتنتصر على المجموعة، ونجحت؛ لكن انتابها الشعور في الوقت نفسه بأن آن هي الأقوى، على الرغم من أنها لم تكن تفعل شيئاً ولم يكن يدعمها أحد. كانت تخسر أمام آن، ربما رأتها المجموعة بهذه الطريقة أيضاً؟ الأمر فقط أنهم لم يجرؤوا أن يذهبوا إلى أبعد من ذلك. وقفت آن وسيس هناك مثل مقاتلتين، لكنه كان صراعاً صامتاً، مسألة تخصها هي والقادم الجديد. لم يكن حتى يُشار إليها.

بعد فترة، بدأت سيس تشعر أن عيني آن عليها في الفصل. جلست آن وخلفها درجان، لذا كان لديها الفرص الكثيرة لأن تنظر إليها.

شعرت سيس بارتعاشة غريبة في جسدها. أحبت هذه الارتعاشة كثيراً

جداً ونادراً ما أزعجت نفسها بإخفائها. تظاهرت بأنها لا تلاحظ، شعرت بنفسها كما لو أنها وقعت في مصيدة شيء ما غريب وممتع. لم تكونا عينين نافذتين أو حسودتين؛ كانت بهما رغبة، تدفعها إلى أن تسرع إلى ملاقاتها. كان هناك ترقب. تظاهرت آن باللامبالاة بمجرد خروجهما خارج الأبواب، ولم تقتربا من بعضهما البعض. لكن تلاحظ سيس من وقت إلى آخر بالارتعاشة الحلوة في جسدها: آن جالسة تنظر لي.

أظهرت لها أنها تقريباً لم تقابل أبداً تلكما العينين. لم تجرؤ حتى الآن أن تفعل هكذا، فقط في بضع نظرات خاطفة قليلة، حينما تنسى.

لكن ماذا تريد آن؟

سوف تخبرني يوماً ما. خارج الأبواب، وقفت آن إلى جوار الحائط بدون أن تشارك في أي من ألعابهم. وقفت تراقبهم بهدوء.

انتظري. الأفضل أن تنتظري، ومن المؤكد أن تأتي يوماً ما. في الوقت الحالي، ينبغي أن تكون قانعة بالأشياء كما هي، وهي غريبة بما يكفي.

لا يجب أن تدع الآخرين يلاحظوا أي شيء. واعتقدت أنها نجحت في ذلك. لكن حينئذ، قالت لها واحدة من صديقاتها بقليل من الحسد: «ينبغي أن أقول إنك مهتمة بآن».

«لا، لست مهتمة».

«ألا تهتمين؟ إنك تحدقين فيها طوال الوقت، هل تظنين أننا لا نلاحظ؟»

هل أنا أفعل؟ فكرت سيس، مذهولة.

ضحكت صديقتها بعصبية. «كلنا لاحظنا هذا منذ وقت طويل، سيس».

«حسناً، فعلت إذن، وسوف أفعل على قدر ما أحب!»

«ياه!»

فكرت سيس في كل هذا بثبات. وحينئذ أخيراً حان الوقت، الآن. الآن، اليوم. كان هذا هو السبب في أنها كانت تمشي هنا.

مبكراً هذا الصباح كانت الرسالة الأولى ملقاة على درجها: «يجب أن أقابلك، سيس». مُوقَّعة، «آن».

شعاع من نور من مكان ما.

استدارت سيس وقابلت العينين. في الحال أصبحتا مع بعضهما البعض. رائع. لم تعرف شيئاً أكثر من هذا، لم تستطع أن تفكر في المزيد عنه.

عبرت الرسائل في هذا اليوم الرائع. ساعدتهم الأيادي الراغبة عبر الأدراج من درج إلى آخر.

«أريد أن أقابلك كذلك». توقيع، «سيس».

«متى أستطيع مقابلتك؟»

«حينما تحبين، آن. تستطيعين مقابلتي اليوم».

«أود أن يكون اليوم، إذن».

«هل ستأتين معي إلى البيت اليوم، آن؟»

«لا، يجب أن تأتي أنت إلى البيت معي، إما إنني لن أستطيع مقابلتك».

التفتت سيس حولها فجأة. ما هذا؟ قابلت عينيها، رأت آن تومئ مؤكدة

على الرسالة. لم تتردد سيس لثانية واحدة، بل أرسلت ردها: «سوف آتي معك».

وتوقفت الرسائل. لم تتحدثا إلى بعضهما البعض حتى انتهاء اليوم المدرسي. حينئذ توقفتا تتحدثان سريعاً وهما خجلتان. سألت سيس ما إذا كانت آن سوف تأتي إلى البيت معها كذلك؟

سألت آن: «لماذا يجب أن أفعل؟»

ترددت سيس. فهي تعرف ذلك لأنها اعتقدت أن لديها شيئاً ربما لم يكن لدى خالة آن، وعلاوة على أنها اعتادت أن يأتي أصدقاؤها إليها. خجلت ولم تستطع أن تخبر آن بهذا.

قالت: «لا شيء على وجه الخصوص».

«قلت إنك ستأتين معي الآن».

«نعم، لكني لا أستطيع أن أذهب معك فوراً. ينبغي أن أذهب إلى البيت أولاً، من أجل أن يعرفوا أين أنا».

«نعم، أظن ذلك».

قالت سيس مسحورة: «إذاً سوف آتي هذا المساء». كان هو الغموض الذي سحرها، الهالة التي بدا لها أنها تراها حول آن.

هذا ما عرفته سيس عن آن، والآن في طريقها إليها، بعد العودة إلى البيت لتخبرهم.

قرصها البرد. كان هناك صرير تحت أقدامها، وأخذ الجليد يدوّي من أسفل. حينئذ وقع نظرها على الكوخ الصغير، حيث تعيش آن وخالتها.

يسطع الضوء بالخارج على أشجار البتولا المكسوة بالجليد. دق قلبها بقوة من فرط السعادة والتوقعات.

٣

ذات ليلة

لابد أن آن كانت واقفة عند النافذة تنتظر سيس، لأنها جاءت قبل أن تصل سيس إلى عتبة الباب. كانت ترتدي سروالها المدرسي.

سألت: «لابد أنها مظلمة؟»

«مظلمة؟ نعم، لكن هذا لا يهم»، هكذا ردت سيس على الرغم من أنها كانت متوترة تماماً من الظلام، والطريق القصير الذي يقطع الغابة.

«لابد وأن الجو بارد كذلك؟ فالجو بارد بصورة مخيفة هنا هذه الليلة».

قالت سيس: «هذا لا يهم أيضاً».

قالت آن: «هذا لطيف أنك رغبت في أن تأتي. تقول الخالة إنك أتيت هنا مرة واحدة من قبل وكنت حينئذ صغيرة جداً».

«نعم، أنا أتذكر ذلك. لم أكن أعرف شيئاً عنك حينئذ». اقتربت كل منهما إلى الأخرى وهما تتحدثان. جاءت الخالة تبتسم بسرور.

قالت آن: «هذه خالتي».

«مساء الخير يا سيس. ادخلي بسرعة، الجو بارد جداً، فلا تقفي بالخارج هناك. ادخلا إلى الدفء، وخذا أشياءكما».

كانت خالة آن ودودة وهادئة. دخلتا إلى حجرة المعيشة الصغيرة

الدافئة. خلعت سيس حذاءها الذي تجمد بقسوة.

سألت الخالة: «هل تتذكرين كيف كان حال الطقس حينما كنت هنا من قبل؟»

«لا».

«لم يتغير أيضا، إنه الشيء نفسه تحديداً كما كان حينئذ. كنت هنا مع أمك. أتذكر هذا جيداً».

بدا أن الخالة ثرثارة؛ ربما نادراً ما تتاح لها الفرصة للحديث. وقفت آن تنتظر حتى تستطيع أن تستأثر بضيفتها إلى نفسها. لكن خالتها لم تكن مستعدة بعد.

«منذ ذلك الحين، رأيتك في كل مكان فيما عدا هنا، سيس. بالطبع لم يكن هناك شيء يحضرك إلى هنا أيضاً ـ حتى جاءت آن لتعيش معي. إنها تصنع هذا بشكل مختلف. أنا محظوظة أن لدي آن، كما تعرفين».

انتظرت آن بصبر نافد.

قالت الخالة: «أنا أعرف، آن. لكن لا تكوني بهذه العجلة. الآن يجب أن تأخذ سيس شيئاً يدفئ جوفها».

«أنا لا أشعر بالبرد».

قالت الخالة: «إنه بالفعل على الموقد. أظن أن الجو بارد جداً ومتأخر للبقاء بالخارج في هذا الوقت من اليوم وفي هذا الطقس. يجب أن تأتي يوم الأحد».

نظرت سيس إلى آن، وردت: «لم أستطع أن أفعل هذا حتى كان اليوم».

ضحكت الخالة مشرقة المحيا: «لا، في هذه الحالة...»

قالت سيس: «وسوف أعود إلى البيت سريعاً قبل أن تذهب أمي وأبي إلى النوم».

«نعم، تعالي هنا واشربي هذا».

شربتا ما قدمته لهما الخالة. كان جيداً، أدفأهما. واستنشقت سيس الإثارة من حولها ببراعة وجاذبية. سرعان ما ستُتركان بمفردهما.

قالت آن: «لدي غرفتي الخاصة. سوف نذهب إلى هناك».

تصاعد توتر سيس. الآن سيبدأ الأمر.

«أنت لديك غرفة خاصة بك أيضاً، أليس كذلك سيس؟»

أومأت سيس.

«تعالي إذن».

بدت الخالة العطوفة جداً والثرثارة كما لو أنها أرادت أن تذهب معهما إلى غرفة نوم آن. من الواضح أنه لم يكن مسموحاً بأن تفعل ذلك. قاطعتها آن بصرامة شديدة إلى درجة أن الخالة ظلت جالسة في مقعدها.

كانت حجرة آن أنيقة، وظنت سيس على الفور أن هناك شيئاً غريباً يتعلق بذلك. مصباحان صغيران جعلاها مشرقة. كل أنواع قصاصات الصحف معلقة على الجدران، مع صورة فوتوغرافية لامرأة تشبه آن كثيراً إلى درجة أنه لم تكن هناك حاجة للسؤال عمن تكون. بعد فترة رأت سيس أن الحجرة لم تكن غريبة على الإطلاق؛ على العكس كانت تشبه حجرة سيس.

نظرت آن إليها مستفسرة. قالت سيس: «إنها حجرة لطيفة».

«كيف هي غرفتك؟ أهي أكبر؟»

«لا، تقريباً المساحة نفسها».

«ليست هناك حاجة لأن يكون لديك أي شيء أكبر».

«لا، لا توجد حاجة إلى ذلك».

كان عليهما أن يتحدثا حديثاً قصيراً لفترة قبل أن تذهبا. جلست سيس على المقعد الوحيد، ومدت ساقيها في البنطلون أمامها. جلست آن على حرف السرير تؤرجح ساقيها في الهواء.

انجذبتا إلى بعضهما البعض، نظرت كل منهما إلى الأخرى تبحثان وتدققان في بعضهما البعض. لم يكن ذلك بسيطاً، لسبب ما غامض. كانتا مرتبكتين بالمثل، لأن كُلًّا منهما أرادت صحبة الأخرى. التقت عيناهما في تفاهم، بشيء من الاشتياق، لكنهما كانتا مرتبكتين ارتباكاً شديداً.

قفزت آن على الأرض، وجذبت يد الباب. ثم أدارت المفتاح.

قفزت سيس مع الصوت، وسألت سريعاً: «لماذا فعلت ذلك؟»

«أوه، ربما تدخل».

«هل أنت خائفة من ذلك؟»

«خائفة؟ بالطبع لا. ليس الأمر كذلك. لكن أردت أن نكون نحن الاثنتان بمفردنا معاً. لا أحد سيأتي الآن!»

«لا، لن يدخل أحد الآن»، كررت سيس وقد بدأت تشعر بالسعادة. شعرت أن الرباط بينها وآن بدأ يتوثق. وعند العودة إلى مكانيهما، استغرقتا في الصمت مرة ثانية. عندئذ سألت آن: «كم عمرك، سيس؟»

«إحدى عشر وقليل».

قالت آن: «أنا إحدى عشر أيضاً».

«نحن تقريباً بالطول نفسه».

قالت آن: «نحن تقريباً في الحجم نفسه».

بالرغم من ذلك شعرتا بالانجذاب لبعضهما البعض، كان من الصعب أن يستمرا في الحديث. جلستا تشيران بأصابعهما إلى الأشياء في متناولهما، وتبحثان عنها. كانت الغرفة دافئة بصورة جيدة. كان ذلك بسبب الموقد الذي يئز بالطبع، لكن ليس هذا بمفرده. فأزيز الموقد ما كان يجدي ما لم تكونا متناغمتين مع بعضهما البعض.

سألت سيس في هذا الدفء: «هل تحبين العيش هنا معنا؟»

«نعم، أحب أن أعيش مع خالتي».

«نعم، بالطبع، ليس هذا ما قصدته. أقصد في المدرسة و... لماذا أنت أبداً لا...؟»

«انظري، قلت لك غير مسموح لك أن تسأليني عن ذلك»، قالت آن ذلك باقتضاب، وندمت سيس بالفعل على السؤال.

سألت سريعاً: «هل ستمكثين هنا طويلاً؟» هل هذا ليس خطراً بالتأكيد؟ هل يوجد بعض الخطر هنا؟ لا، لا يمكن أن يكون، لكنها لم تشعر بالأمان تماماً على كلٍّ؛ من الواضح أنه من السهل أن تذهب، وترحل بعيداً جداً.

أجابت آن: «نعم، سوف أبقى هنا، فأنا ليس لديَّ أحد آخر أقيم معه الآن غير خالتي».

جلستا في صمت مرة أخرى. ثم سألت آن بصرامة: «لماذا لا تسألين

عن أمي؟»

«ماذا؟»

نظرت سيس بعيداً نحو الجدار كما لو أنها انقبضت.

قالت: «لا أعرف».

قابلت عيني آن مرة أخرى. لم يمكن تجنبهما. كذلك كان السؤال. ينبغي عليها أن تجيب لأنه كان عن شيء ما مهم. تلعثمت: «لأنها ماتت الربيع الماضي على ما أظن. هذا ما سمعته».

قالت آن بوضوح وبصوت عالٍ: «أمي لم تكن متزوجة أيضاً. هذا هو السبب في أنه لم يكن...»، توقفت.

نكست سيس رأسها.

واصلت آن: «سقطت مريضة الربيع الماضي، وماتت. مرضت لمدة أسبوع واحد. ثم ماتت».

«نعم».

جاء قول آن هذا بمثابة الإنقاذ؛ بدا الأمر أقل وطأة. فالحي كله عرف ما أخبرتها به آن للتو: قالت الخالة كل هذا وأكثر حينما وصلت آن الربيع الماضي. ألم تعرف آن؟ يتبقى أنه يتعين عليها أن تتحدث عن هذا الأمر الآن في بداية هذه الصداقة التي تتشكل. هناك شيء آخر أيضاً. قالت آن: «هل تعرفين أي شيء عن أبي؟»

«لا!»

«ولا أنا أعرف، فيما عدا القليل الذي أخبرتني به أمي. أنا لم أره أبداً. كان لديه سيارة».

«نعم، أظنه كذلك».

«لماذا تفترضين ذلك؟»

«أوه، لا أعرف، الناس عادة لديهم سيارات، أليس كذلك؟»

«نعم، أظن كذلك. لم أره أبداً. لا يوجد أحد آخر إلى جانب خالتي الآن. سوف أظل مع خالتي إلى الأبد».

نعم! فكرت سيس، ستبقى آن هنا إلى الأبد. إن آن لديها زوج من العيون الصافية يجعل سيس مسحورة، تماماً مثلما حدث فعلاً في المرة الأولى. لم يكن هناك مزيد من الحديث حول الوالدين. لم يرد ذكر والدي سيس أبداً. كانت سيس متأكدة أن آن عرفت كل شيء عنهما؛ فهما يعيشان ببساطة في البيت في منزل محترم، الأب يشغل وظيفة محترمة، لديهما كل شيء يحتاجانه، ولم يكن هناك ما تخبرها به. علاوة على أن آن لم تسأل. بدا كما لو أن سيس لديها أبوان أقل من آن.

لكنها لم تسأل عن أشقاء.

«»ليس لديك إخوة وأخوات، أليس كذلك سيس؟»

«لا، أنا فقط».

قالت آن: «هذا مريح إذن».

ما فهمته سيس أن ملحوظة آن تعني بالفعل: أنها سوف تبقى هنا إلى الأبد. فصداقتها مفتوحة تمتد أمامهما على درب ناعم. شيء مهم قد حدث.

«بالطبع هو مريح. هذا يعني أننا نستطيع أن نتقابل في أحيان كثيرة».

«نحن نتقابل كل يوم في المدرسة كما هو الحال».

«هكذا نفعل».

ضحكتا لبعضهما البعض ضحكة سريعة. كان هذا سهلاً. كان كما ينبغي أن يكون. أخذت آن مرآة معلقة على الحائط بجوار الفراش وجلست ثانية وهي تضعها في حضنها.

«اقتربي هنا».

لم تعرف سيس ما هذا، لكنها جلست إلى جوار آن على حافة السرير. أمسكت كل منهما بزاوية من المرآة، ورفعتاها أمامهما، وجلستا بدون حركة، جنباً إلى جنب، الخد يلامس الخد تقريباً.

ماذا رأتا؟

حتى قبل أن تدركا هذا، كانتا منهمكتين في استغراق بالكامل.

أربعة عيون تلتمع بالبريق والألق تحت الجفون، مفعمة بالنظرات المتطلعة. تنطلق سريعاً، ثم تختفي ثانية. لا أعرف: بريق وإشعاع يبرق منك إليّ، مني إليك، ومني إليك بمفردك، إلى المرآة وإلى الخارج ثانية، ولا إجابة عما يكون هذا، لاتفسير مطلقاً. هاتان الشفتان الحمراوان المعينتان لك، لا إنها شفتاي كيف تتشابهان! الشعر بالطريقة نفسها، والبريق والإشعاع. إنهما نفسينا! لا نستطيع أن نفعل لها شيئاً، فكأنما هي قادمة من عالم آخر. تبدأ الصورة في الاضطراب، تتدفق خارج الحواف، تستجمع نفسها، لا إنها لا تفعل. إنه فم يبتسم. فم من عالم آخر. لا، ليس فماً، ليست ابتسامة، شخص ما يعرف ما هي ـ إنها فقط رموش مفتوحة تكشف عن بريق وإشعاع.

تركتا المرآة تسقط، نظرت إحداهما إلى الأخرى بوجهين متوردين، مشدوهين. أشرقتا تجاه بعضهما البعض، أصبحتا شخصاً واحداً مع بعضهما البعض؛ كانت لحظة لا تصدق.

سألت سيس: «آن، هل عرفت بذلك؟»

سألت آن: «هل رأيت هذا أيضاً؟»

في الحال تأزمت الأشياء. هزت آن نفسها. كان عليهما أن تجلسا لفترة وتتمالكا مشاعرهما بعد هذا الحدث الغريب.

وفي فترة قصيرة قالت إحداهما: «لا أظن أنه كان هناك أي شيء».

«لا، لا أظن أنه حدث».

«لكنه كان غريباً».

بالطبع كان شيئاً ما، لم يذهب، كانتا فقط تحاولان أن تدفعاه بعيداً. أعادت آن المرآة وجلست بهدوء ظاهر. ظلت كلتاهما صامتتين. لم يحاول أحد أن يدير مقبض الباب المغلق. تركتهما الخالة في سلام.

هدوء ظاهري. كانت سيس الآن تراقب آن، ولاحظت كيف تسيطر آن على نفسها. قفز قلبها حينما قالت آن فجأة، والإغواء يغلف صوتها: «سيس، دعينا نخلع ملابسنا!»

حدقت سيس فيها: «نتعرى؟»

بدت آن متوهجة: «نعم. فقط نتعرى. هذا ممتع، أليس كذلك؟»

بدأت تفعل ذلك في الحال.

بالطبع! فجأة شعرت سيس أيضاً أنه سيكون ممتعاً، وبدأت تخلع ملابسها باندفاع، تتسابق مع آن، لتكون مستعدة قبل آن.

كان لآن السبق وكانت الأولى. وقفت على الأرضية متألقة.

بعد ذلك مباشرة وقفت سيس متألقة أيضاً. نظرتا إلى بعضهما البعض. أقصر اللحظات الغريبة.

وصلت سيس إلى نقطة الانغماس في لهو صاخب متوقع منها، ونظرت حولها من أجل شيء تبدأ به. لكنها وقفت. لاحظت نظرات آن السريعة، التوتر يكسو وجهها. كانت آن تقف ساكنة. انتابها اكتئاب للحظة، ثم زال عنه. فكان وجه آن أكثر سعادة، صافياً وساحراً عندما نظرت إليه.

قالت في الحال، كما لو كانت سعيدة بطريقة مضطربة: «أوه لا، سيس، إن الجو بارد في النهاية. أظن أنه من الأفضل أن نرتدي ملابسنا ثانية على الفور». التقطت ملابسها.

بقيت سيس حيث كانت: «ألن نستمر في اللهو؟» كانت تستعد للتشقلب على الفراش وأداء حركات غريبة مماثلة.

«لا، الجو بارد جداً. لا يكون الجو دافئاً بشكل جيد في الداخل، مع مثل هذا الصقيع القاسي بالخارج. ليس في هذا المنزل».

«لكن الجو دافئ هنا، على ما أظن».

«لا، هناك تيارات هوائية. ألا تشعرين بها أيضاً؟ متى تتوقفين عن التفكير في هذا؟»

«ربما».

فكرت سيس في هذا. كان ذلك حقيقة. تشعر ببرد خفيف. كان اللوح

الزجاجي مكسوًّا بالصقيع. كان هناك في الخارج صقيع من أجل الخلود. التقطت ملابسها بالمثل.

قالت آن: «هناك الكثير من الأشياء لعملها إلى جانب الركض عرايا».

«بالطبع يوجد».

أرادت سيس أن تسأل آن، لماذا فعلت ذلك، لكن وجدت أنه من الصعب أن تبدأ. تركت الأمر يمضي. ارتدتا ملابسهما بدون تسرع. وفي الحقيقة، شعرت سيس أنها خُدِعت نوعاً ما. هل كان هذا كل شيء؟

جلستا في المكانين ذاتهما كما من قبل، المكانان الموجودان في الحجرة الصغيرة. جلست آن ونظرت إلى سيس، وتأكدت سيس أنه كان هناك شيء ما لم يخرج بعد. ربما أصبحت مثيرة. لم تعد آن تبدو سعيدة ـ ما حدث الآن فقط يتذبذب على الجفون.

أصبحت سيس عصبية.

«ألن تجدي أي شيء لتفعليه؟»، هكذا سألت حينما فشلت آن في أن تفعل شيئاً.

قالت آن وهي مغيبة: «ما الذي يجب أن نفعله؟»

«إذا لم يكن يوجد شيء، ينبغي أن أعود إلى البيت».

بدا الأمر كأنه تهديد. قالت آن سريعاً: «لا ينبغي أن تعودي إلى البيت أيضاً!»

أوه لا، سيس لا ترغب في ذلك أيضاً. كانت ترتعش بالفعل من الشوق لتبقى.

«أليس لديك أية صور حيث كنت تعيشين من قبل؟ هل لديك ألبوم؟»

أصابت عين الهدف. جرت آن إلى رف الكتب، وأخذت ألبومين.

«كل هذا عني. عني طوال الوقت. أي واحد تريدين أن تريه؟»

«كل شيء». قلبتا الصفحات. كانت الصور ملتقطة من مكان ما بعيد، ولم تكن سيس تتعرف على أحد، إلا حينما تشتمل الصور على آن، وكان هذا هو الحال في معظمها. قدمت آن تعليقات مختصرة. كان مثل كل ألبومات الصور الأخرى. فتاة مشعة تبرز من الصفحة. قالت آن بفخر: «هذه أمي».

نظرتا إليها طويلاً.

قالت آن بعد فترة قصيرة: «وهذا أبي». شاب عادي يقف إلى جانب سيارة. بدا أنه يشبه آن قليلاً أيضاً. قالت آن: «هذه سيارته».

سألت سيس شبه خائفة: «أين هو الآن؟»

أجابت آن محبطة: «لا أعرف. لا يهم».

«لا».

«أخبرتك أنني لم أقابله أبداً. فقط صورته».

أومأت سيس برأسها.

أضافت آن: «لو كانوا قادرين على العثور على أبي، لا أظن أنني كنت آتي إلى خالتي».

«لا، بالطبع لا».

مرة أخرى، نظرت من خلال الألبوم على آن فقط. فكرت سيس أنها كانت بنتاً رائعة دوماً. ووصلتا حينئذ إلى نهاية ذلك أيضاً.

ماذا بعد؟

كانتا تنتظران شيئاً ما. تتوقع شيئاً ما تراه من خلال صمت آن. كانت سيس في انتظارها طوال الوقت، متوترة جداً لدرجة أنها شرعت مرتين في القول بنوع من العنف حتى حان الوقت في النهاية. تعثرت الكلمات كأنها تخرج من جوال مغلق. قالت آن بعد صمت طويل: «سيس».

هي البداية!

«نعم؟»

قالت آن، متوهجة: «هناك شيء أريد...». ارتبكت سيس بالفعل.

«وي؟»

سألت آن سريعاً، لكن وهي تنظر إلى سيس مباشرة في عينيها: «هل ترين أي شيء فيَّ الآن؟»

ارتبكت سيس حتى بصورة أكثر: «لا!»

بدأت آن بصوتها الذي لا يمكن التعرف عليه: «هناك شيء ما أريد أن أخبرك به».

حبست سيس أنفاسها.

لم تستمر آن. لكن قالت حينئذ: «لم أقله أبداً إلى أي أحد».

تلعثمت سيس: «هل أخبرت به أمك؟»

«لا!»

صمت.

رأت سيس أن عيني آن كانتا متلونتين بالفزع. هل هي لن تخبرها؟

سألت سيس تقريباً بصوت هامس: «هل ستقولين لي الآن؟»

جذبت آن نفسها: «لا».

«وهو كذلك».

الصمت ثانية. بدأتا ترغبان لو أن الخالة تأتي وتجرب فتح الباب.

بدأت سيس: «لكن إذا..»

«لن أستطيع، حتى حينئذ!»

انسحبت سيس. تدافع إلى ذهنها خليط من الأفكار، وتم استبعادها. قالت في يأس: «هل هذا ما تريدينه؟»

أضافت آن: «نعم، هذا كل شيء».

أومأت آن، كما لو أنها شعرت بالارتياح، كما لو أن هناك شيئاً ما قد تم وانتهى. لا شيء آخر سيقال. في الحال شعرت سيس مثلها بالارتياح.

ارتاحت، لكن كأنما خُدعت أيضاً للمرة الثانية هذا المساء. وفي الوقت نفسه، كان هذا هو أفضل من سماع شيء ما من الممكن أن يرعبها.

جلستا لفترة كأنهما تستريحان.

فكرت سيس: أفضل أن أنصرف الآن.

قالت آن: «لا تذهبي سيس».

صمت، مرة أخرى.

لكن ما كان للصمت أن يُوثق به، ولا ينبغي الوثوق به في أي وقت. هنا هبت الرياح فجأة، زوابع متقلبة، تغير اتجاهها سريعاً. صحيح أنها سقطت في هاوية الصمت، لكنها مرة ثانية هنا، قفزت منها بصورة غير متوقعة.

«سيس».

«نعم؟»

«لست واثقة أنني سوف أذهب إلى الجنة».

نظرت آن بعيداً إلى الجدار حينما قالت ذلك؛ كان من المستحيل أن تنظر إلى أي مكان آخر. شعرت سيس بسخونة وبرودة: «ماذا؟»

لا ينبغي أن تبقى هنا. ربما تعقد آن عزمها على أن تقول المزيد.

سألت آن: «هل سمعت ما قلت؟»

أضافت سريعاً: «نعم! يجب أن أعود إلى البيت الآن».

«البيت؟»

«نعم، وإلا سوف أتأخر. يجب أن أذهب إلى البيت قبل أن يذهبا إلى النوم».

«لكن موعد النوم لم يحن بعد».

سارعت تضيف: «يجب أن أذهب إلى البيت. فسرعان ما يصير الجو بارداً جداً، وسوف يغلبني النعاس في الطريق». كانت مجبرة أن تتحدث بكلام لا معنى له في حيرتها. كان عليها أن تتخلص من هذا. يتعين عليها ببساطة أن تهرب.

حينئذ قهقهت آن كما ينبغي على ما قالته سيس، للانضمام بسهولة إلى النكتة.

قالت: «لا ينبغي أن تفعلي هذا، دعي النعاس يغلبك»، سعيدة لأن سيس قد غيرت الموضوع. شعرتا مرة أخرى أنهما تجنبتا مسائل شديدة

الصعوبة.

أدارت آن المفتاح في مقبض الباب. قالت آمرة: «اجلسي. أنا فقط سآتي بملابسك».

كانت سيس على أحر من الجمر الآن. لم يكن الجو آمناً هنا. ما الذي لن تقوله آن؟ لكن لأنها مع آن! إلى الأبد. ستقول قبل أن يفترقا: تستطيعين أن تخبريني المزيد في وقت آخر. حينما تحبين، في وقت آخر. لا يمكن أن نذهب أبعد من ذلك هذا المساء. لقد كان اتفاقاً رائعاً كما كان. لكن إذا كان لهما أن يذهبا إلى أبعد من ذلك سيجعل هذا الأمور مستحيلة. الآن العودة إلى البيت بأسرع ما يمكنها.

وإلا سوف تتورطان في شيء ما سوف يحطم كل هذا لهما. بالأحرى فقد لمعتا في عيني بعضهما البعض.

أتت آن بمعطفها وحذائها، ووضعتهما إلى جانب الموقد الساخن: «ربما يدفئان بالمثل».

قالت سيس وهي تلبس حذائها: «لا، يجب أن أذهب».

وقفت آن بدون أن تتكلم، بينما سيس تجهز حالها لمواجهة الغابة. لم تكن هناك جدوى من التحدث في المزيد من الهراء، لكنه أفضل من أن يغلبها النوم وتتجمد من الصقيع، فقد كانتا متوترتين مرة ثانية. لم تقولا العبارات المعتادة عند الافتراق: ألن تأتي مرة ثانية سريعاً؟ ألن تأتي إليَّ المرة القادمة؟ لم يحدث هذا. كان كل شيء مربكاً وصعباً. لم تفسد الأمور بأي طريقة، لكنها صعبة جداً إلى حد بعيد الآن على وجه التحديد، وجهاً لوجه.

كانت سيس مستعدة.

«لماذا أنت ذاهبة؟»

«أخبرتك، يجب أن أعود إلى البيت».

«نعم، لكن...»

«حينما قلت أنا يجب...»

«سيس...»

«دعيني أذهب».

كان الباب مفتوحاً الآن، لكن آن كانت تعترض الطريق. ذهبت كلتاهما إلى الخالة.

كانت الخالة تنتظر على مقعدها مع بعض الأشغال اليدوية. وقفت على قدميها بصورة ودية مثل تلك التي كانت عليها في وقت مبكر من هذا المساء.

«حسناً، سيس، هل ستتركيننا مبكراً؟»

«نعم، أظن أنه يجب أن أذهب إلى البيت».

سألت مغتاظة: «لم تتبق أسرار؟»

«ليس هذا المساء».

«سمعتك تغلقين الباب، آن».

«نعم، أنا أغلقته».

قالت الخالة: «حسناً لا يمكنك أبداً أن تكوني حريصة جداً». سألت بنبرة صوت مختلفة: «هل هناك أي شيء في الأمر؟»

«الأمر؟ بالطبع لا».

«أنتما غاضبتان جداً؟»

«لسنا غاضبتين ألبتة!»

«وهو كذلك، لا شيء. أظن أنني كبرت في العمر، ويخونني السمع».

«شكراً على استضافتي»، هكذا قالت سيس، وهي تحاول أن تبتعد عن الخالة التي تمازحهما فقط، وتجعلهما تبدوان حمقاوين ولا تعرفان شيئاً مطلقاً.

قالت الخالة: «انتظري قليلاً، ينبغي أن تتناولي شيئاً دافئاً قبل أن تخرجي في البرد».

«لا، شكراً لك، ليس الآن».

«أنت في عجلة».

قالت آن: «عليها أن تذهب إلى البيت».

«حسناً جداً».

سحبت سيس نفسها: «إلى اللقاء، وجزيل الشكر لك على استضافتي».

«شكراً لك على قدومك، سيس. الآن يجب أن تركضي للاحتفاظ بالدفء. أرى أن البرد يزداد أكثر وأكثر وتتزايد حلكة الظلام أيضاً».

أصرت الخالة: «لماذا تقفين هناك، آن؟ سوف تريان بعضكما في الصباح».

قالت سيس: «نعم سنتقابل! ليلة سعيدة».

وقفت آن في المدخل بعد أن مضت خالتها إلى الداخل. وقفت فقط.

ما الذي حدث لهما؟ شعرت كما لو أنه من المستحيل تقريباً أن تفترقا. شيء غريب قد حدث.

«آن...»

«نعم».

قفزت سيس إلى الخارج في البرد. استطاعت بسهولة أن تمكث فترة أطول، كان لديها فسحة من الوقت، لكنه كان خطرًا. لا ينبغي أن يحدث المزيد.

بقيت آن في المدخل المفتوح، حيث يتقابل البرد والدفء. تحرك البرد معها إلى غرفة المعيشة. بدا أن آن لا تلاحظ. نظرت سيس خلفها قبل أن تبدأ في الركض. كانت آن مازالت تقف في المدخل المضاء، جميلة وغريبة وخجولة.

٤

جانب الطريق

ركضت سيس إلى البيت. تصارع على نحو أعمى خوفها من الظلام.

قالت: إنه أنا على جانبي الطريق.

فكرت عشوائياً، لا! لا!

أنا قادمة، هكذا قالت على جانبي الطريق.

ركضت، وهي تعرف أنه يوجد شيء ما في كعبيها، خلفها مباشرة.

ما هو؟

مباشرة من آن إلى هذا. هل هي لا تعرف أن الطريق إلى البيت سيكون بهذه الكيفية؟

كانت تعرف، لكن كان ينبغي عليها أن تذهب إلى آن.

ضجة في مكان ما أسفل الجليد. جرت عبر امتداد واسع، وبدا أنها اختفت عند فجوة. تصدع الجليد على طول ميل. وقفزت سيس على أثر الصوت.

خلل في التوازن. لم يكن لديها شيء آمن لتبدأ به في رحلة العودة من خلال الظلام، لا خطوات ثابتة تدب على الطريق، كما حدث حينما

كانت تمشي إلى آن. بدأت تركض وهي غارقة في التفكير، وقد تحقق الضرر. في الحال تُركت إلى المجهول الذي يمشى خلف المرء في مثل هذه الأمسيات.

مفعمة بالمجهول.

بوجودها مع آن وصلت إلى قمة الإثارة، وحتى أكثر بعد أن ودعتها وغادرت. كانت خائفة حينما خطت الخطوات الأولى وهي تركض تقريباً، وتزايد خوفها سريعاً مثل التداعي والانهيار. كانت بين يدي المجهول على جانبي الطريق.

الظلام على جانبي الطريق. لا يميزه شكل ولا يحدده اسم، لكن أي فرد يمر من هنا، يعرف متى يأتي ومتى يتعقب وما يبعث بالقشعريرة مثل خرير الجداول يسري أسفل ظهره.

كانت سيس في وسط ذلك، لا تفهم شيئاً، خائفة ببساطة من الظلام.

سأعود إلى البيت حالاً!

لا لن تفعلي.

لم تلحظ حتى الدموع المتجمدة على أنفاسها. حاولت أن تتشبث بصورة حجرة المعيشة على ضوء مصباح في البيت. دافئة وبراقة. أمها وأبوها على أريكتيهما. حينئذ ستعود طفلتهما الوحيدة إلى البيت، طفلتهما الوحيدة التي لا ينبغي، كما أخبرا بعضهما البعض، أن تفسد، وهي التي حولاها إلى لعبة من أجل ألا يفسداها ـ لا لم تكن لها فائدة، لم تكن هناك، كانت بين الأشياء على جانبي الطريق.

لكن آن؟

فكرت فيما يتعلق بآن: الرائعة، الجميلة، الوحيدة آن.

ما الحكاية مع آن؟

تصلبت في منتصف الخطوة.

ما الحكاية مع آن؟

بدأت مرة أخرى. شيء ما أعطاها تحذيراً من خلف ظهرها.

نحن على جانبي الطريق.

اركضي!

ركضت سيس. كان هناك قصف رعدي عميق، قوي في مكان ما في الجليد على البحيرة، وقعقع حذاؤها على الطريق المتجمد. وجدت بعض الراحة في ذلك؛ فإذا لم تستطع أن تسمع وقع خطواتك، ربما تُجن. لم تكن لديها القوة لتجري سريعاً جداً أكثر من ذلك، لكنها استمرت في الركض على المنوال نفسه.

أخيراً استطاعت أن ترى الضوء في البيت.

أخيراً.

تصل إلى ضوء المصباح الخارجي!

تراجعوا إلى الخلف، الأشياء على جانبي الطريق، ومرة أخرى تحولوا إلى همهمة خارج دائرة الضوء، لتترك سيس تذهب إلى الأب والأم. كان للأب مكتب في الحي، والآن يجلس مستريحاً في مقعده في البيت لفترات طويلة جدًا. كانت الأم تقرأ كما تفعل عادة حينما يكون لديها وقت. لم يحن بعد وقت النوم.

لم يقفزا قلقين متلهفين حينما رأيا سيس لاهثة مغطاة بالصقيع. جلسا بهدوء في مقعديهما: «ماذا يجري في العالم، سيس؟»

حدقت فيهما أولاً. ألم يكونا خائفين؟ لا، مطلقاً. لا، بالطبع لا، هي فقط التي كانت خائفة، فهي التي جاءت من الخارج. ماذا يجري في العالم سيس؟ هكذا قالا بهدوء. فهم قد عرفوا أنه لم يصبها ضرر. ولا هما قالا ما يزيد عما هو موجود في العالم، منذ أن عادت إلى البيت مبهورة الأنفاس منهكة، تتجمد أنفاسها إلى رقاقات من الثلج على ياقة معطفها المقلوبة.

«هل هناك أي شيء مهم، سيس؟»

هزت رأسها: «فقط كنت أركض».

«هل كنت خائفة من الظلام؟» هكذا سألا، ضاحكين قليلاً، كما ينبغي لشخص من نوعهما أن يفعل.

قالت سيس: «بوو، خائفة!»

قال الأب: «همم، لست متأكداً تماماً! لكن على أية حال ينبغي أن تكوني كبيرة جداً إزاء هذا النوع من الأشياء الآن».

قالت الأم: «نعم، يبدو كما لو أنك قطعت الطريق كله ركضاً».

«كان ينبغي أن أعود قبل أن تذهبا للفراش. وبعد كل شيء أنتما قلتا...»

«أنت تعرفين أننا لا يُفترض أن نذهب إلى النوم قبل بعض الوقت، لذلك لم تكوني مضطرة...»

تصارع سيس مع حذائها المتجمد؛ تركته يصطدم بالأرضية.

«كم تبديان من ملاحظات هذه الليلة».

نظرا إليها في استغراب: «أية ملاحظات؟ هل قلنا أي شيء؟»

لم تجب سيس، بل شغلت نفسها مع حذائها وجوربها.

نهضت أمها من مقعدها: «لا يبدو أنك...»، بدأت لكنها توقفت. شيء ما يخص سيس أوقفها.

«اذهبي واغتسلي أولاً، سيس. سيجعلك هذا تشعرين بالتحسن».

«نعم، أمي».

فعلت ذلك. استغرقت وقتاً طويلاً. لكنها عرفت أنه لا يمكنها أن تتجنب توجيه الأسئلة. عادت مرة ثانية، وجدت لنفسها مقعداً، لا تجرؤ على أن تغوص في فراشها. لذلك سوف يكون هناك أكثر من فرصة لتفحصها. ربما ستواجه هذا بالفعل.

قالت الأم: «هذا أفضل كثيراً».

انتظرت سيس.

قالت الأم: «كيف كان الحال إذاً عند آن، سيس؟ هل كان لطيفاً؟»

قالت سيس بحدة: «كان لطيفاً!»

قال الأب وهو يبتسم إليها: «لا يبدو كثيراً هكذا».

نظرت الأم أيضاً: «ماذا بك هذا المساء؟»

نظرت إليهما. رأت أنهما كانا يفيضان حناناً كما عهدتهما، لكن...

قالت: «لا شيء. لكن لا تحدقان هكذا. تتفحصان كل شيء».

«أوه تعالي، سيس».

«ادخلي وتناولي شيئاً تأكليه. إنه هناك على مائدة المطبخ».

«لقد أكلت شيئاً ما».

لم تتناول شيئاً، لكن قدمت لهما الطعام مباشرة.

«جميل جداً، من الأفضل أن تذهبي إلى فراشك. تبدين مرهقة. أتوقع أن تكون الأمور على ما يرام في الصباح. ليلتك سعيدة، سيس».

«ليلة سعيدة».

ذهبت في الحال. لم يفهما شيئاً. وبمجرد أن دخلت الفراش، تأكدت كم كانت متعبة. كانت لديها أشياء مضطربة غريبة لتفكر بخصوصها، لكن الدفء بعد البرد سرقها، ولم تفكر طويلاً.

٥

قصر الجليد

«انهضي، آن».

نداء الخالة المعتاد، اليوم مثل أي يوم آخر من الأيام العادية للمدرسة.

لكن بالنسبة إلى آن، لم يكن يوماً عادياً، كان الصباح الذي يلي مقابلتها مع سيس.

«استيقظي، آن!» على الرغم من أنه لم يكن هناك وجه للعجلة في الذهاب إلى المدرسة. لكن الخالة هي كذلك، لا تدعك تنتظرين حتى الدقيقة الأخيرة.

سمعت آن القصف الرعدي المعتاد من الجليد الفولاذي الصلب بالخارج هناك في الظلام حينما رفعت رأسها. لكن داخل حجرتها أثناء الليل، سمعت صدمة مكتومة أيضاً، تخبرها قبل أن تستغرق في النوم في النهاية، والآن كان هو منتصف الليل تماماً. استغرقت وقتاً طويلاً لتذهب في النوم بعد المساء مع سيس، تفكر في كل شيء ربما يحدث، مع سيس.

كان الجو بارداً أكثر من أي وقت مضى في الخارج، هكذا قالت الخالة التي كانت تُعد الإفطار. نظرت آن إلى النجوم اللامعة القاسية فوق المنزل. تستطيع بالكاد أن ترى أن السماء الشرقية كانت تغدو أكثر شحوباً: فجر ما

قبل أعياد الميلاد شتوي تماماً.

حينما ضعف الظلام، ظهرت الأشجار يكسوها الصقيع الأبيض؛ راقبتها آن عندما خرجت إلى المدرسة.

للمدرسة ومن أجل سيس.

ولن تفكر في الآخر اليوم!

في الحال صدمها كيف أنه من المستحيل مقابلة سيس مرة أخرى بعد ساعات قليلة من الطريقة الخرقاء التي شاركتا فيها. فهي قد أخافت سيس بحيث إنها خشيت من أن تهرب. لم تكن هناك فائدة من مقابلتها بصورة مباشرة! لم تكن هناك فائدة من الذهاب إلى المدرسة اليوم.

نظرت إلى الغابة التي غطى الجليد أشجارها في إشراقة الفجر. سوف تختبئ في مكان ما، تبتعد، لا تقابل سيس اليوم.

غداً سيكون الأمر مختلفاً، لكن ليس فقط الآن. لا تستطيع أن تنظر إلى عيني سيس اليوم. لم تفكر إلى ما بعد ذلك؛ تملكتها الفكرة بقوة قاهرة.

سيس التي كانت تستميت للمقابلة، ومع ذلك...

على أية حال سوف تضطر إلى تركها كما تفعل كل يوم. فلا فائدة من الجلوس والقول إنها لا ترغب في الذهاب إلى المدرسة. خالتي لن تقبل ذلك. مضى الوقت الذي يمكن أن تقول فيه إنها مريضة أيضاً ـ إلى جانب أنه ليس من عادتها أن تختلق الأعذار. نظرت إلى نفسها سريعاً في المرآة: لم يبد عليها المرض في أقل القليل، لم تكن هناك فائدة من اختلاق الأكاذيب. سوف تغادر إلى المدرسة كالمعتاد، ثم تنصرف سريعاً قبل أن تقابل أي شخص. تهرب وتختفي حتى تنتهي المدرسة.

بالرغم من أن الخالة نادتها وأيقظتها، قالت لها حينما كانت آن جاهزة بحقيبة المدرسة: «هل ستذهبين مبكراً؟»

«هل الوقت مبكر عن المعتاد؟»

«أظن ذلك».

«أريد أن أقابل سيس». شعرت بطعنة حينما قالت ذلك.

«أوه، بالطبع. هل أنت في مثل هذه العجلة؟»

«مم».

«إذن أستطيع أن أرى أنه لا فائدة من قول أي شيء. أحكمي معطفك السميك، فالبرد قارس. البسي القفاز أيضاً».

بدت كلماتها مثل أسوار عبر الطريق إلى المدرسة؛ كان من الصعب التسلق فوقها، وتؤدي مباشرة إلى المدرسة. لكن ليس اليوم! ليس بعد أن هربت سيس منها الليلة الماضية.

«ما هذا، آن؟»

ارتعشت آن وارتدت للخلف: «لا أستطيع أن أجد قفازي».

«هنا، مباشرة أمام عينيك».

تركت المنزل في ظلام آخذ في التبدد. كان يتعين عليها أن تجد كيفية تحفظها اليوم بعيداً عن الأنظار.

لا، كان لديها اليوم تفكير واحد فقط: سيس.

هذا هو الطريق إليها. هذا هو الطريق إلى سيس.

لا أستطيع أن أقابلها، فقط أفكر فيها.

لا ينبغي التفكير في الآخر الآن، ينبغي التفكير فقط في سيس التي وجدتها.

سيس وأنا في المرآة.

ومضات وتوهج.

فكري فقط في سيس.

مع كل خطوة.

ها هي الآن لأول مرة شجرة بيضاء مكسوة بالصقيع سوف تخفيها. هناك تركت الطريق. سوف تبقى مختبئة حتى تستطيع أن تعود إلى البيت ثانية في الموعد المعتاد بدون استجواب.

لكن ما الذي تفعله هي بنفسها؟ يوم مدرسي طويل بالكامل. وفي مثل هذا البرد. بدا الهواء الذي تستنشقه يعوق تنفسها، يقلصها. إنه يقرص خديها. لكن معطفها الثقيل وكونها قد اعتادت على برد هذا الخريف، منعاها من أن تشعر بالفعل بقشعريرة البرد.

هدير صاخب! الرعد يزمجر في سطوع فولاذي أسود على البحيرة المتجمدة.

كان هذا هو! هذا هو الحل. عرفت في الحال ما سوف تفعله: سوف تذهب لترى الجليد.

كل شيء بنفسها.

حينئذ سيكون لديها الكثير لتفعله طوال اليوم، وتستطيع أن تحتفظ بالدفء وبكل شيء.

إن الرحلة لمشاهدة الجليد قد نوقشت في المدرسة خلال الأيام القليلة الماضية. لم تشارك آن فيها، لكنها سمعت ما يكفي لكي تعرف عنها في مجملها، ومن أنهم سوف يقومون بها سريعاً لأن الثلوج ربما تتساقط في أي يوم منذ الآن.

كان هناك شلال على مسافة ما، قد شكل حوله جبلاً غير عادي من الثلوج خلال هذه الفترة الطويلة قارسة البرودة. يُقال إنه يشبه قصراً، ولا يستطيع أحد أن يتذكر أن هذا قد حدث من قبل. كان هذا القصر هو الهدف من الخروج. أولاً عبر البحيرة إلى المخرج، ثم إلى أسفل النهر إلى الشلال. كان نهار الشتاء القصير مثل هذا مناسباً تماماً لها.

لكنني سوف أراه مع سيس!

طردت الفكرة بعيداً بالتفكير الدافئ والسعيد: سوف أراه مرة ثانية مع سيس، سيكون هذا حتى أفضل.

يسطع الجليد فوق البحيرة براقاً حتى أنه لا يشبه الثلج على الإطلاق. ثلج فولاذي. ليست ندفاً من الثلج تتساقط في المياه حينما تتجمد، فلم تتساقط ندف ثلجية منذ ذلك الحين.

كان الجليد سميكاً وآمناً. أرعد وتصدع وتصلب. جرت آن تجاهه. بدا من الطبيعي أن تجري بسبب البرد. بالإضافة إلى أنها كانت تجري من

أجل أن تبتعد سريعاً عن الجزء الذي يمكن أن يوجد فيه الناس، حيث إنها في سبيلها إلى أن تختفي طوال اليوم.

تمكنت من هذا الآن. إن النداء العاجل، «آن، تعالي!» بصوت من نوع صوت الخالة، لم يأت. ظنت الخالة أنها في المدرسة الآن.

لكن ما الذي سيفعلونه في المدرسة؟ لم تفكر في هذا.

سيقال إنها مريضة لأول وهلة. بالطبع. هل ستظن سيس هذا أيضاً؟ ربما ستفهم سيس لماذا.

جرت سيس عبر الأرض المتجمدة والأحجار الصلبة التي كررت وقع خطواتها. وقفت الأشجار التي يكسوها الصقيع مع فسحات من الغابة فيما بينها. جرت متعرجة فيما بين الأشجار من أجل أن تخفي نفسها عن أعين أقرانها. فقط الآن ستخرج على الجليد وتمشي عبر حافة البحيرة.

فكرت في سيس. لقاؤهما غداً، حينما يسوي كل شيء نفسه قليلاً ولا يكون مستحيلاً تماماً مثل اليوم. وفجأة، لم تصبح بعد وحدها. وجدت شخصًا ما تستطيع أن تخبره بكل شيء حالاً.

جرت في فرح في اتجاه الجليد، عبر الأرض المتجمدة فيما بين أغصان أشجار البتولا المكسوة بالصقيع؛ كانت تلمع مثل الفضة. فهي الآن مضيئة تقريباً. تتشامخ السيقان الشاحبة وتنحني بأوراقها العريضة الباهتة، أسقطتها آن وهي تجري وتدفقت الأوراق الفضية الجافة مثل الرمال فوق حذائها.

فكرت بفرح في الجليد: أكبر وأكثر؛ هكذا ينبغي أن يكون الجليد.

أرعدت في المساء. ربما تستيقظ حينئذ، وربما ستفكر: مازال أكثر

سمكاً.

تصدعت جدران المنزل القديم أيضاً في هذا البرد. قالت خالتي: إن الأخشاب تتقلص. فإذا سمعت هذا في المساء، لا فائدة من قول، أكثر سمكاً، أكثر سمكاً، أنت تفكرين: البرد رهيب، إنه الرعد، يدوي في البيت.

الآن، هي على شاطئ البحيرة، ولا يبدو أن شخصاً ما قد رآها، ولا أقل لمحة، بحيث يمكن لأي شخص أن يخبر عنها. كان الجليد قاحلاً كما عرفت أنه سيكون، في وقت مبكر جداً من النهار. فيما بعد في الصباح سوف يأتي أطفال صغار؛ فهم مسموح لهم أن يلهوا بصخب ويتدافعوا هنا كما يحلو لهم طالما أن الجليد قوي مثل الصخور بدون تصدعات خطيرة كانت البحيرة كبيرة، اتساعها هائل من الجليد.

كانت تبدو ممتعة من خلال الجليد الأسود اللامع القريب من الشاطئ. لم تكن آن كبيرة على فعل هذا، تتمدد مستوية على بطنها، تعقد يديها على وجهها لتوجه نظرتها. كانت مثل التي تحدق من خلال نظارة مكبرة.

حينئذ، ارتفعت الشمس، باردة ومائلة، وأشرقت من خلال الجليد مباشرة على القاع البني، بطينه وأحجاره وأعشابه.

وعلى مسافة قريبة من الأرض تجمدت المياه في صلابة. حتى القاع، كان أبيض له حواف، وتكونت له طبقة سميكة من الجليد الصلب على قمته. وعلى هذه الكتلة الجليدية الواسعة، تجمدت الأوراق التي تشبه السيوف والقش الرفيع والبذور وفتات من الغابات، كنمل بني متداخل، اختلطت كلها بالفقاعات المتشكلة، تبدو بوضوح كحبات خرز حينما تصلها أشعة الشمس. تكومت كذلك الحصوات الصغيرة السوداء في

المياه العذبة على ضفاف البحيرة في كتل مع اللحاءات المقشورة. ووقفت أجمات نبات السرخس في الجليد مثل رسومات رقيقة. كان بعضها متجذراً في القاع، وقُطِع بعضها الآخر من المياه المتحجرة، حيث انبسطت طافية على السطح. وتجمد السطح بعد ذلك، فاستمرت في بناء نفسها.

ترقد آن تراقب، مفتونة بذلك: كانت أغرب من أي حكاية للجان.

ينبغي أن أرى المزيد...

رقدت منبسطة على الجليد، لا تشعر بالبرد حينئذ. كان لجسدها النحيل ظل له تكوين إنساني مشوه، مرسوماً على القاع.

حينئذ، غيرت وضعها على المرآة الزجاجية المشرقة. مازالت أجمة السرخس الرقيقة تقف على كتلة الجليد في ضوء براق.

هناك الانحدار الرهيب.

كلما تعمقنا، يصبح القاع بنياً مع كل شيء. ومن بين الأعشاب القليلة، ترقد في الطين محارات صغيرة سوداء، تحرك إحدى زوائدها. لا شيء يأتي منها؛ فهي لا تثير الطين حولها أو تغير وضعها. لكن في الحال، فيما وراءها، يغطس جدار الطين تقريباً إلى هوة سوداء تماماً.

المسقط الرهيب.

تحركت آن، وتبعها الظل المنزلق، وقع تماماً عبر الهوة واختفى كما لو أنه قد امتُصَّ سريعاً إلى درجة أن آن قد جفلت. وبعدئذ، فهمت.

ارتعش جسدها قليلاً وهي ترقد هناك؛ بدا كما لو أنها ترقد في مياه صافية. شعرت آن بدوار عابر، وتأكدت حينئذ من جديد أنها ترقد بأمان

على قمة الجليد السميك الفولاذي الصلب.

كانت غير مستريحة رغم ذلك وهي تنظر على المسقط الهائل. إنه يعني الموت المؤكد لأي شخص لا يقدر على السباحة. تستطيع آن أن تسبح الآن، لكن كان هناك وقت لم تكن تقدر على السباحة، وفي يوم ما سوف تمضي إلى أعلى مثل هذا الشلال تماماً. كانت تخوض، حينما لم تجد فجأة تحت قدميها شيئاً. مضت بصلابة وهي تعرف أنها على وشك... لكن حينئذ انتزعتها يد عنيفة، أرجعتها إلى الأرض الآمنة، إلى رفقتها الصاخبة.

لم تكمل آن تدريبها على التفكير في المسقط البشع ـ جاء من الظلام شعاع من الضوء مرتفعاً ناحيتها: سمكة تتحرك سريعاً مثل سهم كأنه يتوجه مباشرة إلى عينيها. انكمشت جانباً، ناسية أن هناك جليدا فيما بينهما. هناك شريط أخضر رمادي من الخلف، ثم رعشة على أحد الجانبين والحركة السريعة من العين الزجاجية تنظر لترى ماذا تريد.

هذا كل شيء، غوص مرة ثانية إلى الأعماق.

وعرفت جيداً ما الذي تريده السمكة الصغيرة. الآن، كان هو هناك بالفعل يخبر الآخرين، هكذا تخيلت. بطريقة أحبتها.

لكن السمكة الفضولية قطعت الرباط الذي كان يربطها بالمكان. شعرت بالبرد أيضاً. نهضت وبدأت فيما يشبه العدو، تنزلق على الجليد الأملس. لبعض الوقت، كانت على الأرض تركض بسرعة فوق الرؤوس التي برزت على البحيرة، ثم للخارج على الجليد مرة أخرى. اكتسبت الدفء من ذلك واستمتعت به.

فعلت ذلك لوقت طويل؛ كانت هناك مسافة ما على المصب. لكن أخيراً وصلت.

لم تر، ولا سمعت مسقط الماء، كان في الأسفل. كان هنا مجرد همس للماء وهو يرحل إلى أسفل وإلى أعلى عند المصب، حيث كان ساكناً تماماً وصامتاً.

هذا هو مصب البحيرة العظيمة: منحدر هادئ للماء من حافة الجليد، ناعم جداً إلى حد أنه نادراً ما يمكن رؤيته. لكن حجاباً من البخار ارتفع منه في البرودة. لم تكن واعية بأنها تقف وتنظر إليه؛ كانت كأنما هي في حلم جميل. فالحلم الجميل يمكن أن يُستخرج من شيء بسيط جداً. لم تشعر بتأنيب الضمير لأنها خرجت في نزهة بدون إذن، وربما سيكون من الصعب إيجاد أعذار لها. إن تدفق المياه بعيداً عن الجليد ملأها بالمتعة الخالصة.

من المحتمل أن تفقد تماسكها وتسقط في غور حيث كانت الظلال هذه المرة أيضاً، لكنها كانت لحظة جيدة، وطاردت الآخر بعيداً مرة أخرى بالمشهد الذي تدفق نحوها: يأتي النهر العظيم صامتاً وعذباً تحت الجليد، ينساب من خلالها، يرفعها ويقول لها شيئاً، هو فقط ما احتاجت إليه.

كانا ساكنين، هي والماء، ذلك أنها فكرت الآن أنها تسمع مسقط الماء، الهدير من بعيد حيث ألقت المياه المنزلقة بنفسها من فوق حافة الهاوية. لم يكن من المفترض أن تستطيع أن تسمع الشلال من هنا، عرفت

ذلك من المدرسة. الآن استطاعت مجرد سماعه.

كان هذا أينما ذهبت. وهي لن تفكر في الآخر. ستكون حرة من ذلك اليوم!

كلهم سوف يذهبون هناك إلى المدرسة في الخارج. يأتي الهدير مثل صدى صامت من خلال هواء الغابة، وبالفعل لم يكن من المفترض أن تسمعه.

هادئ وأسود، وبدون صوت ينزاح إلى الأمام من أسفل الحافة المصقولة بالجليد، والجديدة والنظيفة طوال الوقت، والساكنة مثل الانزلاق إلى الحلم.

إن الرجفة البعيدة للشلال ذكرتها بالمكان الذي كانت ذاهبة إليه. استيقظت. تود أن تخبر شخصاً آخر بما تشعر به الآن، لكنها لن تفلح في هذا، هي تعرف.

تأكدت الآن كيف تشعر بالبرد بمجرد أن وقفت ساكنة. تغلغل الصقيع إلى ملابسها. بدأت تجري لتحصل على الدفء.

فقط أسفل المصرف، بدأت الأرض تنحدر قليلاً. وبدأت المياه الصامتة تهمس. كانت الضفاف المنحدرة زخرفة للتكوينات الجليدية الغريبة، بعد كل الطقس الصقيعي والرذاذ المتناثر من جدول المياه الأكثر دفئاً. وزحف النهر بينهما يلعق رقاقات الصقيع.

تتكون الأرض من نبات الخلنج وكتل من الأعشاب النامية، مثل كل شيء آخر، إشراقة فضية مع الصقيع في ضوء الشمس المائل. قفزت آن من كتلة عشبية إلى أخرى على هذه الأرض الخاصة بأساطير الجان.

وبداخل حقيبتها المدرسية كتبها وصندوق ساندويتشاتها، قفزت إلى أعلى وإلى أسفل، أيضاً.

غدا المنحدر أكثر انحداراً. وفي الحال بدأ الجدول يحدث جلبة أكثر، فيما بين أحجار النهر السوداء البارزة التي تكللها تيجان لامعة من الجليد. تجري آن هنا بدون إذن. فكرت: وجئت هنا بدون إذن أيضاً. لكن الحقيقة أنها أرادت أكثر وأكثر.

تستطيع الآن أن تسمع بوضوح الخرير المغري القادم من أسفل. ينساب بعيداً باستمرار، وكلما تزايد صوت الخرير، تكون أكثر على الطريق الصحيح.

احتفظ لها ركضها المتهور بالدفء. تتقلص أنفاسها في سحابات صغيرة حينما تتوقف. كان معطفها السميك متيبساً جداً يصعب الركض به. كانت آن دافئة تماماً من خلاله، تلتمع عيناها. تتوقف في الفواصل بين كتل العشب المتنامي، وتنفث كميات من السحب المنبعثة من أنفاسها الصحية الدافئة.

تزايد الانحدار، وارتفع صوت النهر أعلى، لكن هدير الشلال ظل في حده الأدنى متوعداً ومغوياً بدرجة أقل. فكرت بطريقة متحدية: لا أريد أن أفعل هذا!

لكنها فعلت. ينبغي أن تفعل مع سيس.

كان هو الشيء الوحيد الصحيح، حتى لو كان عاصياً وخطأ. لا يمكن أبداً أن ترجع الآن. لديها ما تفعله مع سيس ومع كل الأشياء الجميلة التي يمكن أن تلمحها منذ الآن. إذا كانت ستتراجع عن ذلك، إذا كانت

ستنسحب من الهدير هناك وتعود إلى البيت خالية الوفاض، سوف تشعر بالهوة والحرمان، بالحنين إلى شيء ما ربما لن تجده ثانية أبداً.

فجأة، أصبح الهدير أقوى. بدأ النهر يسرع من جريانه، يتدفق إلى قنوات صفراء. ركضت آن عبر المنحدر في اختلاط فضي بين نبات الخلنج وكتل الأعشاب المتنامية وفيما بينهما أشجار متفرقة. كان الهدير أقوى، وتصاعدت أمامها فجأة حلقات من رذاذ وردي، كانت على قمة الشلال.

وقفت لفترة قصيرة كما لو أنها على وشك أن تسقط من فوق الحافة التي ظهرت فجأة.

مرت من خلالها موجتان: الأولى، برد مسبب للشلل، ثم دفء منعش، كما يحدث في المناسبات العظيمة.

كانت آن هناك للمرة الأولى. لم يطلب منها أحد أن تأتي إلى هنا معهم في الصيف. ذكرت خالتها أنه يوجد هناك شلال، لا أكثر. لم تحدث مناقشة حوله حتى الآن، في المدرسة في آخر خريف، بعد أن أتى قصر الجليد وأصبح يستحق المشاهدة.

وما هو هذا؟

لابد أنه قصر الجليد.

اختفت الشمس فجأة. كان هناك وادٍ له جانبان منحدران؛ ربما وصلته الشمس أخيراً، لكنه الآن في ظلال البرودة الجليدية. نظرت آن إلى أسفل، إلى عالم ساحر من قمم صغيرة وزوايا وقباب متجمدة ومنحنيات

ملساء وزخارف أشجار متشابكة. كانت كلها جليد وماء يتفجر فيما بينها، ويبنيها باستمرار. وتحولت فروع من الشلال واندفعت إلى قنوات جديدة، لتخلق أشكالاً جديدة. كان كل شيء مشرقاً. لم تأت الشمس بعد، لكنها أشرقت على الجليد الأزرق والأخضر نفسه وأضاءت البرودة المميتة. غاص الشلال في منتصفها كما لو كان يغوص في قبو أسود. ومن أعلى حافة الصخرة، انتشرت المياه في شرائط، من الأسود إلى الأخضر، ومن الأخضر إلى الأصفر والأبيض، كلما اتسع الشلال. وجاء صوت دوي هادر من فتحة القبو حيث اندفعت المياه نفسها في رغاوٍ بيضاء باتجاه الأحجار على القاع. وارتفعت نفثات من الضباب في الهواء.

بدأت آن في الاستمتاع. كانت غارقة في أمواج متصاعدة وضجيج، تماما مثلما كانت رغاوي الزبد الباردة تبتلع سحب أنفاسها الدافئة.

على الفور، لم تتوقف الغيوم والرذاذ على كل جانب، بل أخذا يتكاثفان بدقة واطراد على الرغم من الصخب الشديد. كانت المياه تخرج عن مسارها لتبني بمساعدة الصقيع: تجاويف وممرات أكبر وأطول، ثم ممرات وحارات وقباب من الجليد فوقها أكثر تعقيداً وأروع من أي شيء رأته آن أبداً من قبل.

نظرت مباشرة إلى الرذاذ والغيوم. كان يتعين عليها أن تراها من أسفل، وبدأت تنزل من المنحدر الوعر الذي اكتسى بالصقيع إلى جانب الشلال. كانت مبهورة بالمكان، كم بدا المشهد مذهلاً بأكمله.

فقط عندما نزلت بقدميها إلى أسفل، رأت أنها بنت صغيرة على الأرض تنظر إلى هذا، وتلاشى كل بقايا تأنيب الضمير. لم تستطع أن

تتوقف عن التفكير في أنه لم يكن هناك شيء أصح من أن تذهب إلى هناك. أثبت لها قصر الجليد أنه أكبر سبع مرات وأكثر نبضاً بالحياة من هذه الزاوية.

حينما فكرت فيه، بدا أن جدران الجليد تلامس السماء من هنا. كانت سكرى. المكان مليء بالأجنحة والأبراج، من المستحيل وصفها بالكلمات. جعلتها المياه تتضخم من جميع الاتجاهات، وتساقط الشلال الرئيس إلى أسفل من المنتصف، محتفظاً لنفسه بمساحة خالية.

بدت هناك أماكن انحسرت عنها المياه إلى حد أنها أصبحت لامعة وجافة بالكامل. وغطت الرغاوي وقطرات المياه على أماكن غيرها، وتحول الندى المنبعث من خرير الماء في ومضة خاطفة إلى جليد أخضر ضارب في الزرقة.

كان قصراً مسحوراً. ينبغي أن تجد طريقاً إليه! كان حتماً مليئاً بالممرات والبوابات الغريبة، وهي ينبغي أن تدخل. بدا غريباً جداً حتى أن آن نسيت كل شيء آخر عندما وقفت أمامه. لم تكن واعية بشيء سوى رغبتها في الدخول.

ليس من السهل أن تجد الطريق. خدعتها أماكن كثيرة تشبه الفتحات، لكنها لم تستسلم، حتى عثرت على صدع تقطر من خلاله المياه، متسع بما يكفي أن تضغط نفسها من خلاله.

كان قلبها يخفق بشدة حينما دخلت الحجرة الأولى. بصيص ضعيف من الضوء الخافت يخترق هنا وهناك؛ فارغاً إلا من البرد القارس.

بدون تفكير، صاحت: «هاي»، تنادي أي شخص. كان للفراغ هذا

التأثير؛ ينبغي أن تصرخ فيه. لم تعرف لماذا، عرفت أنه لا يوجد أحد هناك.

جاء الرد في الحال. «هاي!»، هكذا أجاب المكان بصوت ضعيف.

كيف بدأت!

يتوقع المرء أن يكون المكان ساكناً مثل مقبرة، لكن تردد فيه صوت هدير غريب. لقد اخترقت ضجة الشلال كتلة الجليد. فالتسابق الوحشي للمياه بالخارج يدفع بنفسه الرغاوى على أحجار القاع الذي كان منخفضاً ومتماوجاً بخطورة هنا.

وقفت آن لتدع رعبها ينحسر قليلاً. لم تعرف من الذي نادى عليها ولم تعرف من أجابها. لا يمكن أن يكون صدى صوت عادي.

ربما لم يكن المكان كبيراً إلى هذا الحد كذلك. شعرت به متسعاً. لم تجرب أن ترى ما إذا كانت تستطيع أن تتلقى إجابات أكثر، وبدلا من أن تبحث عن طريق للخروج تقدمت إلى الداخل. لم يرد في خاطرها للحظة الخروج إلى ضوء النهار ثانية.

ووجدت طريقها بمجرد أن بحثت عنه: صدع كبير فيما بين أعمدة الجليد اللامعة.

دلفت إلى جحرة كانت تشبه ممرًّا إلى حد كبير لكنها كانت حجرة في الوقت نفسه. اختبرت الأمر بنصف همسة: «هاي»، وسمعت نصف «هاي» مرعبة مرة أخرى. لقد عرفت تلك الحجرات التي تنتمي إلى مثل هذه القصور، تمكن السحر منها ووقعت في الشرك وغفلت عما كان كامناً خلفها. فكرت في هذه اللحظة فقط في القصور.

لم تصرخ: «سيس!» في الممر المظلم، هي صاحت: «هاي!» ولم

تفكر في سيس في غمرة هذا السحر المفاجئ، فكرت في حجرة فوق حجرة في قصر جليدي أخضر، وأنها يجب أن تدخل كل واحدة منها.

كان البرد نافذاً، وحاولت أن تستكشف ما إذا كان بمقدورها أن تطلق سحباً كثيفة من أنفاسها، لكن الضوء كان معتماً جداً. هنا، تأتي جلبة الشلال من أسفل، لكن هل يمكن أن يكون هذا صحيحاً؟ لم يكن هذا صحيحاً في هذا القصر، لكن يبدو أنه يتعين عليك أن تتقبله.

كانت ترتجف وترتعش قليلاً، على الرغم من دفء المعطف الذي أعطته لها خالتها، حينما بدأ الطقس الشتوي في هذا الخريف. لكنها سرعان ما ستنسى ذلك في ظل الإثارة للحجرة القادمة، وتأكدت من أنها ستجد الحجرة كما هي متأكدة من أنها آن.

وربما كما هو متوقع في حجرة ضيقة، كان هناك طريق إلى الطرف الآخر: جليد أخضر جاف، صدع جافته المياه.

وحينما وصلت إلى داخل الحجرة الأخرى، حبست أنفاسها لما رأته: كانت في وسط غابة متحجرة. غابة جليدية.

إن المياه التي انبثقت فجأة للحظة قد شكلت جذوعاً وفروعاً من الجليد وشجيرات نابتة من العمق فيما بين الأشجار الضخمة. كانت توجد أشياء هنا أيضاً لا يمكن وصفها بشيء أو آخر، لكنها تنتمي إلى مكان كهذا، وكان على المرء أن يقبل كل شيء كما هو. حدقت بعينين واسعتين إلى حكاية غريبة من حكايات الجان. ويأتي هدير الماء من بعيد.

كانت الغرفة مضيئة. لا وجود لضوء الشمس، لكن ضوء الشمس تنحى جانباً، يبرق بغرابة على الجدران الجليدية. كان البرد رهيباً.

لكن لم تكن هناك أهمية للبرد، طالما أنها هناك؛ هذا ما ينبغي أن يكون، هذا هو بيت البرد. جالت آن بعينيها تمسح الغابة، وهناك أطلقت صيحة مترددة وتجريبية: «هاي!»

لم يأت رد.

بدأت في دهشة. لم يرد!

إن كل شيء جليدي حجري صلب. كل شيء غير عادي. لكنه لم يرد، وهذا لم يكن صحيحاً. ارتجفت وشعرت بنفسها في خطر.

كانت الغابة عدائية. الحجرة عظيمة بما لا يُصدق، لكنها كانت عدائية ومرعبة لها. بحثت في الحال عن طريق للخروج، قبل أن يحدث أي شيء. إلى الأمام أو الخلف، لم يعد يعني شيئاً بالنسبة لها؛ فقدت كل إحساس به.

وجدت صدعاً آخر تنفذ من خلاله. يبدو أن الصدوع تنشق لها أينما ذهبت. وحينما مرت من خلاله قابلت نوعاً جديداً من الضوء الذي عرفته من حياتها الماضية: كان ضوء النهار العادي.

أسرعت بالنظر حولها، أُحبِطت قليلاً؛ كانت السماء العادية فوقها! لا سقف من الجليد، لكنها سماء شتوية زرقاء باردة عالية مطمئنة. كانت في حجرة مستديرة لها جدران ناعمة من جليد. هنا مياه لكنها تتفرع فيما بعد في قنوات أخرى في كل مكان.

لا تجرؤ آن على أن تصيح «هاي!» هنا. فالغابة الجليدية قد وضعت حداً لهذا، لكنها وقفت واختبرت غيوم أنفاسها في ضوء النهار المعتاد. شعرت بالمزيد والمزيد من البرد حينما تذكرت التفكير فيه. تلاشى

الدفء الناتج عن مشيتها منذ فترة طويلة، فالدفء بداخلها يقتصر على هذه السحب الصغيرة من أنفاسها. تركتها تتصاعد في تلاحق سريع.

كانت على وشك الذهاب، لكن سرعان ما توقفت. نادى شخص ما: «هاي!» من هذا الاتجاه. دارت على عقبيها ولم تجد أحداً. لكنها لم تتصور ذلك.

افترضت أنه إذا لم يكن هذا نداء الزائر، فالحجرة إذن قد نادتها. لم تكن متأكدة أنها أحبته، لكنها أجابت بنعومة: «هاي!» لايزيد بالفعل عن همسة.

لكنها جعلتها تشعر بأنها أفضل. بدا أنها فعلت الشيء الصحيح، لذلك اكتسبت منها الشجاعة، ونظرت حولها تبحث عن صدع تستطيع أن تذهب إليه في الحال. كان هدير شلال الماء عالياً وعميقاً عند هذه النقطة؛ كانت قريبة منه بدون أن تستطيع رؤيته. يجب أن تذهب!

الآن ترتعش آن من البرد، لكنها لم تعرفه، كانت منفعلة كثيراً جداً. كانت هناك الفتحة! متى أرادت واحدة سرعان ما تجدها.

من خلالها سريعاً.

لكن هذا كان غير متوقع أيضاً: كانت تقف داخل ما بدا أنه يشبه حجرة من الدموع.

وبمجرد أن دخلت، شعرت بانسياب قطرات خلف رقبتها. كانت الفتحة التي مرت من خلالها منخفضة جداً لدرجة أنها اضطرت أن تنحني بشكل مضاعف.

هي حجرة الدموع. كان الضوء على الجدران الزجاجية ضعيفاً جداً،

وبدت الحجرة كلها كأنها تسيل وتبكي بهذه القطرات في شبه الظلام. لم يتراكم شيء بعد هناك، تساقطت القطرات من السطح بدفقات ناعمة إلى كل بركة صغيرة من دموع. كانت حزينة جداً.

تساقطت على معطفها وعلى قبعتها الصوفية. هذا لا يهم، لكن قلبها ثقيل مثل الرصاص. كانت تبكي. ما الذي تبكي من أجله؟

ينبغي أن تتوقف!

لم تتوقف. على العكس، بدا أنها تزيد. كانت المياه تأتي من هذا الاتجاه بكميات ضخمة، مضى الخرير أسرع، تساقطت الدموع غزيرة.

بدأت ترشح على الجدران. شعرت كأن قلبها سيتحطم.

تعرف آن جيداً ما يكفي أنها مياه، لكنها كانت حجرة للدموع في الوقت نفسه. زاد هذا من انقباضها وجعلها أكثر حزناً: لا فائدة من النداء على أي أحد، أو أن ينادي عليها أحد في حجرة مثل هذه. لم تلاحظ حتى خرير المياه.

تحولت القطرات إلى ثلوج تكسو معطفها. حاولت أن تغادر في محنتها العميقة. ترنحت على طول الجدران، وفي الحال وجدت طريقها إلى الخارج، أو الطريق إلى الداخل، لكل ما تعرفه.

كان الطريق إلى الخارج أكثر ضيقاً من كل الطرق الأخرى، وهو الطريق الذي ضغطت نفسها من خلاله لكنه بدا كما لو أنه يقود إلى قاعة مضيئة براقة. شعرت آن بمجرد أن رأتها أنها مشحونة بالرغبة في الدخول إليها؛ بدت مسألة حياة أو موت.

ضيقة جداً، لا تستطيع أن تنفذ من خلالها. لكن ينبغي أن تدخل.

إنه المعطف السميك، فكرت، وخلعت المعطف والحقيبة المدرسية، وتركتهما لتلقي بهما ريثما تعود. لم تفكر كثيراً في ذلك، على أية حال، فكرت فقط في الدخول.

والآن نجحت في ذلك، برشاقة ومرونه كما كانت حينما اندفعت بقوة كافية.

كانت الحجرة الجديدة معجزة، هكذا بدت لها. سطع النور قوياً وأخضر خلال الجدران والسقف ليرفع معنوياتها بعد تشبعها بالدموع.

بالطبع! فجأة فهمت، أنها الآن يمكن أن تراها بوضوح: كانت هي نفسها تبكي بحرقة شديدة هناك. لم تعرف لماذا، كانت هي نفسها تغوص في دموعها.

لم يكن هناك ما يزعج. كانت مجرد وقفة في المدخل حينما دخلت إلى الحجرة النظيفة العاصفة التي تلمع في الضوء الأخضر. ولا قطرة على السقف هنا، وقد خمد هدير الشلال. بدت هذه الحجرة كأنها مخصصة للصياح فيها، إذا كان لديك شيء تصيح من أجله، صيحة وحشية عن الصحبة والراحة.

انطلقت تصيح: «سيس!»

حينما فعلت هكذا بدأت. جاءت الإجابة «سيس!» من ثلاثة أركان على الأقل.

وقفت ساكنة حتى اختلطت الصيحة بالخرير. ثم عبرت الحجرة.

وبينما كانت تفعل هذا فكرت في أمها، وفي سيس وفي الآخر، فكرت فيه للحظة قصيرة جداً. لقد أحدث النداء فتحة؛ الآن أغلقت ثانية.

لماذا أنا هنا؟ غمرها السؤال كلما مشت صعوداً وهبوطاً. مشت خطوات ليست كثيرة جداً، كانت تمشي بتصنع وعلى غير هدى. لماذا أنا هنا؟ حاولت أن تجد حلاً لهذا اللغز. وفي الوقت نفسه مشت بطريقة غريبة متعالية، نصف واعية.

كانت قريبة من الحافة الآن: بسط الجليد يده فوقها.

شعرت بتجمد الصقيع. تركت معطفها في مكان ما آخر، كان هذا هو السبب. الآن يمكن للبرد أن يتخلل جسدها كما يحلو له. شعرت بنفسها مرعوبة، ووثبت عبر الجدار لتخرج إلى معطفها الدافئ. من أين دخلت؟

كان الجدار جبلاً من الجليد، محكماً وناعماً. وثبت عبر جدار آخر. كم عدد الجدران الموجودة هناك؟ كلها كانت محكمة وناعمة أينما ولت وجهها. بدأت تصيح بطفولة: «لابد أن أخرج!» وفي الحال وجدت الفتحة.

لكن هذا القصر كان غريباً: لم تعد إلى معطفها، بل خرجت إلى شيء ما لم تحبه كثيراً.

في النهاية حجرة أخرى. كانت صغيرة بالفعل ومليئة برقاقات الثلج النازفة من السقف الأسفل والمعبأة بشرائح من الثلوج تنمو من الأرضية والجدران المسننة بالكثير من الزوايا السميكة إلى الحد الذي يميت الضوء الأخضر. لكن هدير الشلال لم يمت؛ أصبح هنا فجأة قريباً جداً، إلى أسفل، أو في أي اتجاه، كأنه موجود هنا داخل القصر مباشرة.

تقطر المياه من جدران هذه الحجرة، تُذكرها بتلك التي صرخت فيها. لم تصرخ الآن. منع البرد ذلك وعتم على كل شيء. كان الكثير يبرق من خلال عقلها، لكن كما لو كان ومضة في الضباب؛ إذا حاولت أن تستوعبه، التمع شيء آخر بدلاً منه. لابد وأنه خطر لها بالتأكيد أن هذا خطر، سوف تصرخ عالياً، تتحدى الصرخة التي هي جزء من قصر الجليد: «هاي! هاي!»

لكنها لم تكن هي التي تسمى الصيحة الصحيحة. كان كامناً عبرها تفكير آخر، وبالكاد سمعتها بنفسها. لم تكن محملة على الإطلاق؛ كانت الإجابة الوحيدة الهدير الوحشي. اكتسح الهدير كل الأصوات الأخرى. وليس هذا المهم. ضربها فكر آخر ونفذ شعاع آخر من البرودة.

لقد حدث لها أن الهدير كان مثل شيء تضطجع عليه، فقط تضطجع عليه ويحملك بعيداً. إلى أبعد ما تريد ـ لا، لم يضربها شيء مثل هذا.

كانت الأرضية مبللة بالقطرات. وفي أماكن أخرى تجمد سطح الماء في رقاقات. لم يكن هذا مكان ليكون ـ فتشت آن مرة أخرى في الجدران المعقدة بحثاً عن فتحة.

كانت تلك الحجرة الأخيرة؛ لم تستطع أن تتقدم أكثر من هذا.

فكرت في هذا بشكل غامض. على كل الأحوال لم يكن هناك طريق للخروج. لا فائدة هذه المرة مهما فعلت. كان هناك الكثير من الشقوق، لكنها لا تفضي إلى أي شيء، فقط إلى مزيد من الجليد، وومضات غريبة من الضوء.

لكن، هل في النهاية هي محبوسة؟

لا فائدة من التفكير بهذه الكيفية. لم تكن محبوسة بالداخل، الآن هي بالخارج ـ وكانت هذه مسألة أخرى، هكذا فكرت باضطراب. فالصدع الذي دخلت من خلاله لم تجده حينما أرادت أن تغادر مرة أخرى.

لا فائدة من الصياح، فالهدير يغطي عليه. كانت فتحة من الدموع تنتظر أمامها بالفعل. لم تستطع أن تغوص فيها، لكنها لم تستطع أن تسحب نفسها بعيداً. انتهت إلى هذا في مكان آخر.

هل كان أحد ينقر على الجدار؟

لا، لا أحد سوف يدق على الجدار هنا! أنت لا تطرق جدراناً من جليد. ما كانت تبحث عنه هو بقعة جافة تقف عليها.

أخيراً وجدت ركناً لم تكن به رطوبة. جلست هناك وهي تثني قدميها تحتها، قدماها التي لم تعد تشعر بهما.

بدأت البرودة الآن تيبس جسدها كله، لم تعد تشعر به تماماً. أحست بالتعب، وكان عليها أن تجلس لفترة قبل أن تبدأ البحث جدياً عن مخرج ومهرب ـ طريق بعيد عن هنا ـ إلى معطفها وإلى خالتها، وإلى سيس.

بدأت أفكارها بالتدريج تضطرب وتجنح إلى الغموض. ميزت أمها للحظة، ثم انزلقت بعيداً كذلك. وكان كل ما تبقى ضباباً ممزوجاً بخيوط من وميض ضوء، ولكن ليس إلى الدرجة التي تجذب الانتباه. سيكون هناك وقت كافٍ للتفكير حول هذا فيما بعد.

كان كل شيء منذ أمد بعيد، تراجعت إلى الخلف. تعبت من كل هذا البحث في القصر في كل هذه الغرابة، لذلك كان شيئاً طيباً أن تجلس لفترة، الآن لا يتعبها البرد كثيراً. جلست تضغط يديها ببعضهما البعض

بشدة. نسيت السبب. وبعد كل شيء، هي ترتدي قفازها.

بدأت القطرات تتلاعب أمامها. في البداية لم تسمع شيئاً إلى جانب الهدير العظيم، لكن استطاعت أن تميز وقع القطرات المتساقطة. ترشح من السقف المنخفض وتسقط رقاقات الثلج على البرك، كان لها وقع أغنية، أغنية رتيبة لا تتوقف: بليم-بلام.

وما هذا؟

اعتدلت. شيء ما يفيض فوقها، لم تشعر به من قبل، بدأت تصيح ـ الآن لديها رغبة عميقة سوداء في الصراخ إذا احتاجت إلى ذلك ـ لكنها لم تسمح لأكثر من واحدة أن تنطلق.

كان هناك شيء ما في الجليد! في البداية لم يكن له شكل، لكن في اللحظة التي صرخت فيها اتخذ الجليد له شكلاً، وظهر هناك مثل عين جليدية تواجهها، وتوقف أفكارها.

كانت عيناً بوضوح، عيناً عظيمة. اتسعت أكثر وأكثر وهي تنظر إليها مباشرة في وسط الجليد، معبأة بالضوء. هذا هو السبب في أنها صاحت مرة واحدة. مع ذلك، حينما نظرت ثانية، لم تجدها مخيفة.

اتسمت أفكارها بالبساطة الآن. فالبرودة قد أعجزتها شيئاً فشيئًا. كانت العين في الجليد كبيرة ونظرت إليها بوميض مكثف، لكنها لا تدعو إلى الخوف، فكل ما فكرت فيه كان: ما الذي تبحث عنه؟ أنا هنا. وتأتي الأفكار العادية إليها في مثل هذه المواقف بصورة أكثر غموضاً: أنا لم أفعل شيئاً. لا تخافي.

جلست ثانية كما كانت من قبل وقدماها مسحوبتان إلى أعلى، وتنظر

حولها لأن العين كانت تأتي بمزيد من الضوء، بحيث كانت الحجرة أكثر تميزاً.

إنها فقط عين كبيرة.

توجد عيون كبيرة هنا.

لكنها شعرت أنها تنظر إليها من أعلى هناك، وكانت مضطرة أن ترفع رأسها وتقابل العين بدون أن تجفل.

أنا هنا. كنت هنا طوال الوقت. لم أفعل شيئاً.

بالتدريج، امتلأت الحجرة بإيقاعات بليم-بلام لقطرات المياه. كانت كل قطرة تشبه كسرة من أغنية. ومن تحتها يعزف الهدير القاسي المتواصل، ومن ثَمَّ يأتي الإيقاع العالي بليم-بلام، مثل موسيقى أكثر لطفاً في وسطها. ذَكَّرتها بشيء ما قد نسيته منذ وقت طويل، ولهذا كان إيقاعاً مألوفاً ومطمئناً.

تزايد الضوء.

واجهتها العين بإعطائها مزيدًا من الضوء. لكن آن نظرت إليها بجرأة، تركتها تتسع كما يحلو لها، تركتها تفتشها عن قرب كما ترغب؛ لم تكن خائفة من ذلك.

لم تشعر بالبرد أيضاً. لم تكن مطمئنة، كانت عاجزة بشكل غريب، لكنها لم تشعر بالبرودة. تذكرت الوقت بشكل غامض، حينما كانت البرودة قارسة في القصر، لكن ليس الآن. شعرت بثقل تام وترنح، رغبت بالفعل لو تنام قليلاً، لكن العين جعلتها متيقظة.

الآن، هي ليست مستثارة، لكنها جلست قبالة الحائط، ورأسها مرفوعة بحيث تستطيع أن تنظر مباشرة إلى الضوء في الجليد. بدأ الضوء يسطع أكثر، ويملؤها باللهيب. كانت الومضات السريعة للقطرات الساقطة تفصلها عن العين، وهي تعزف موسيقاها الرتيبة.

كانت العين النارية مجرد تحذير، لأن الحجرة اجتاحها الآن لهيب مفاجئ. ارتفعت أخيراً شمس الشتاء بما يكفي أن تدخل إلى قصر الجليد.

إن الشمس المتأخرة، الباردة قد احتفظت بقدر مدهش من طاقتها. اخترقت أشعتها الجدران الجليدية السميكة واقتحمت الزوايا والشقوق، وهشم الضوء الأنماط الغريبة والأشكال البديعة، وجعل الحجرة الحزينة ترقص. رقصت الكتل الثلجية المدلاة من السقف، وتلك التي نبتت من الأرضية وقطرات المياه نفسها، كلها رقصت معاً في فيض من النور اقتحمها. وتألقت القطرات وتصلبت وسطعت وتحجرت، لتشكل قطرة واحدة أقل في كل مرة في الحجرة الصغيرة. سرعان ما ستمتلئ.

طوفان أعمى من الضوء. فقدت آن الاتصال بكل شيء إلا الضوء. تحترق العين المحدقة، كل شيء من النور. فكرت ببلادة بأنه كانت هناك كمية ضخمة منها.

كانت مستعدة للنوم، كانت حتى دافئة بالمثل. لم تكن تشعر بالبرد هنا بأي درجة. رقصت الرسومات على الجدار في الحجرة، سطع الضوء أقوى. انقلب كل شيء يجب أن يكون مستقيماً رأساً على عقب. كان كل شيء براقاً على وجه التحديد. لم تفكر ولو للحظة أن هذا غريب؛ كان ما يجب أن يكون. أرادت أن تنام؛ كانت ضعيفة مترنحة ومهيأة.

الجزء الثاني

جسور تكسوها الثلوج

١

اختفاء آن

هل كان مجرد حلم غريب؟ هل كنا أنا وآن مساء الأمس؟ نعم!

حينما تبدد عدم يقينها، اتضحت الحقيقة: لقد حدث. حدث في دهشة ومتعة.

إن كل ما تشعر به الآن قد جدد الحنين إلى آن. ينبغي أن تذهب مباشرة إلى المدرسة لمقابلتها. تستطيع أن تفعل هذا اليوم، الآن تغيرت الأشياء.

كان يتعين على سيس أن ترقد لفترة لتفكر في كل هذا الذي سيصير جديداً من الآن فصاعداً. جعلت نفسها تشعر بالمهابة من خلال التفكير: أنا صديقة آن إلى الأبد. جعلت الأمر شيئاً ثميناً إلى أقصى درجة.

لم يسألها أبوها وأمها أية أسئلة اليوم. ولا كلمة عن عودتها غير المعتادة إلى البيت الليلة الماضية. ربما سينتظران قليلاً. لمدة يوم أو يومين. ثم يسألان كما لو أنهما لا يقصدان. كانت هذه هي الطريقة التي يخططان بها لمعرفة كل الأشياء.

لكن ليس هذا! هذا هو الحد. لن تخرج منهما كلمة واحدة عن آن. إن ما يشع من عيني آن أوهن من أن يدور الحديث حوله.

كان الصباح مثل أي صباح آخر. ارتدت سيس ملابسها بنفسها متحصنة ضد البرد، وأخذت حقيبتها المدرسية وخرجت إلى المدرسة.

من سيصل أولاً إلى هناك؟ لا يتصل طريق آن مع طريقها حتى قبل أن يصلا إلى المدرسة مباشرة.

فكرت، هل ستكون آن محرجة اليوم؟

بدا الصقيع قوياً أكثر من أي وقت. تلألأت السماء فوق الشفق الحريري الرقيق، زرقاء مثل الفولاذ. لم يكن هناك ما يخيف اليوم على جانبي الطريق؛ كانت ظلمة الصباح ممتعة كلما تناثرت بالتدريج وتبددت قسراً. غريب أن يصاب المرء بالذعر منها في المساء.

ما الأمر مع آن؟

ربما تخبرني مرة أخرة في وقت ما. لن أفكر في هذا. أريد فقط أن أكون معها. هي ليست بحاجة أن تخبرني. إنه شيء يؤلم؛ لا أريد أن أعرف ما هو. لم تكن آن قد وصلت حينما أسرعت سيس إلى الفصل الدافئ. كان العديد من الآخرين هناك. قال بعضهم بشكل عابر: «هاي، سيس».

لم تقل كلمة عن اجتماع الأمس. ربما هم قد توقعوا هذا بسبب الرسائل المتبادلة، لكنهم كبحوا أنفسهم. ربما انتظروا لكي يروا ما الذي سيحدث حينما تحضر آن. فهمت سيس هذا، وتشاغلت: بمجرد أن تظهر آن في المدخل ستتوجه إلى مقابلتها بحيث يرى كل فرد ما وصلت إليه الأشياء. جعلتها الفكرة سعيدة جداً إلى درجة أنها ارتعشت بالكامل.

هل هي تبدلت بالفعل؟ سألت بنت من المجموعة القديمة مباشرة: «ما الأمر يا سيس؟»

«لا شيء».

هل يرون أنها من الممكن أن تتركهم وتذهب إلى آن لتمرح معها

مثلاً؟ هل كانت عيونهم ترقب بحدة؟ حسناً، لا يهم. في كل الأحوال سرعان ما سيذيع السر. على الرغم من الحرج فهي ينبغي أن تفعل هذا: تمضي إلى آن وهي منتشية بالصداقة.

هل ستخرج سريعاً من بين طيات الشفق؟ مثل شيء قشيب؟

لم تظهر علامة على مقدمها. سرعان ما أصبح الجميع تقريباً يتوقعون حضور آن. جاء المدرس. حان الوقت.

قال المدرس: صباح الخير.

لكن ألم تأت آن؟

سرعان ما تم التأكيد من مسئول الفصل: «آن غائبة اليوم».

بدأوا الدرس.

آن غائبة اليوم. بيان بارد عن حقيقة واقعة. لاحظت سيس التي كانت تراقب أنها سمعت دهشة طفيفة في صوت المدرس. بالتأكيد أن الآخرين لم يسمعوا شيئاً. أحياناً يغيب أحدهم، أحياناً آخر. لا غرابة في ذلك. لوحظ بصورة مكثفة أن آن لم تحضر إلى المدرسة اليوم. هذا كل شيء.

جلست سيس متوترة على مقعد درجها.

لاحظت أن آن لم تتغيب أبدا عن المدرسة، لذا لابد وأن هناك شيئاً خاصاً اليوم. وربطت سيس هذا بدون تردد بمقابلتهما في غرفة نومها مساء أمس. هل لا تريد آن ببساطة أن تقابلها اليوم؟ هل هي محرجة جداً؟

في الراحة، حاولت سيس أن تتصرف بالشكل المعتاد. لم يقل أحد أنها لم تفعل، لذلك لابد وأنها نجحت في ذلك. كما أنه لم يذكر أحد شيئاً عن آن الغائبة؛ كانت غريبة عنهم على أية حال.

واستمر اليوم الدراسي. وارتفعت شمس الشتاء وسطعت بأفضل ما يمكن على النوافذ الزجاجية. انتظرت سيس ببساطة أن تهبط الشمس وينتهي النهار، لتمضي وتسأل عن آن. مضى النهار بطيئاً.

وبعد الظهر بقليل غابت الشمس. فقبل أن تبدأ مسارها المختصر في الهبوط حجبها الضباب، ضباب سرعان ما تحول إلى سحابة رمادية كثيفة.

أعلى في مكتب المسئول، كان الصوت يقول: «ذكر تقرير الطقس أنه سيكون هناك تغير بعد الظهر. يتوقعون تساقط الثلوج».

ثلوج.

للمرة الأولى هذا العام.

مختصر، لكنه يفيض بالمعنى: ثلوج.

له رنين خاص. لذلك كان كل شخص في الحجرة يدرك جيداً ما الذي تعنيه الكلمة: جزء مهم من الحياة. ثلوج.

استمر الصوت هناك: «لذلك ربما يسود طقس بارد أيضاً».

ومرة أخرى: «لكن الثلوج حينئذ سوف تغطي الجليد».

للحظة، فكر كل منهم في شيء حزين: جنازات أو شيء ما مشابه. كان هذا تأثيره. كانت البحيرة سوداء تلمع مثل الفولاذ للمرة الأخيرة. هناك برودة، لكنه موسم رائع للتزحلق على الجليد لوقت طويل. سينتهي اليوم، سوف تأتي الثلوج.

خرجوا من الأبواب بعد الدرس التالي، بدأ الجليد يكتسب بالفعل اللون الأبيض.

هنا في فناء المدرسة، مازالت الأرض جرداء، لكن الهواء كان رمادياً،

وتستطيع أن تستشعر رقائق غير مرئية قليلة على وجهك إذا رفعته. بالفعل، كان الامتداد الشاسع للون الأبيض. لم يكن سطح المرآة الأملس يقاوم تجمع ندف الثلج على طولها في نهاية الأمر.

وبصورة غير عادية، سرعان ما يمكن للشيء أن يتحطم. انبسطت الثلوج واتشحت بالبياض وتسطحت.

وحينئذ، حدث أخيراً، حينما نودي عليهم في الدرس التالي: «هل يعرف أي فرد لماذا غابت آن اليوم؟»

لم يستطع أي فرد أن يرى البداية التي شرعت فيها سيس. إنها انتهت بالفعل. نظروا إلى بعضهم البعض؛ لم يشر أحد على أنهم قد عرفوا أي شيء.

«لا»، جاء الرد في النهاية بكل صدق.

قال المدرس: «كنت أنتظر أن تأتي طوال اليوم. الأمر غير معتاد منها. أظن أنها مريضة».

تأكدوا أن آن كانت أكثر أهمية مما حسبوا بشكل طبيعي. ربما كانوا يعرفون دائماً. لابد وأنهم سمعوا كيف كانت مشرقة. لكنها كانت تقف هناك تحافظ على الأشياء. وفي المناسبات النادرة حينما كانت تشارك، سرعان ما تنصرف عند الانتهاء، لتقف هناك كما من قبل، تنظر بترفع أو بأي شكل كان.

نظروا ببراءة على مكتب المسؤول. تأكدوا من أن آن تحظى بمكانة. وقف المدرس ينظر متفحصاً الصفوف: «هل يوجد أي شخص صديق آن ويعرف ما إذا كانت مريضة؟ فهي لم تتخلف عن الحضور ليوم واحد

طوال الخريف».

لم يرد أحد. جلست سيس مشدودة.

سأل المدرس: «هل هي منعزلة تماماً».

«لا إنها ليست كذلك!»

تحول كل شخص تجاه سيس. كانت هي من قال، أو تقريباً من صاح قائلاً ذلك. جلست وقد اكتسى وجهها بالحمرة في مقعدها.

«هل هو أنت سيس؟»

«نعم، هو أنا».

«هل تعرفين آن؟»

«نعم؟»

نظر الآخرون متشككين.

«حسناً، هل تعرفين ما شأنها اليوم؟»

«أنا لم أرها اليوم».

نظرت سيس بشكل غير معتاد منها حتى أن المدرس شعر أنه يجب أن يقترب أكثر مما كان ينوي. وجاء إليها. «أنت قلت أن...»

انفجرت سيس قبل أن يستكمل: «أنا قلت إنني صديقة آن». فكرت، الآن هم قد عرفوا.

إحدى البنات الجالسات إلى جوارها، نظرت كما لو أنها تريد أن تسأل: منذ متى؟ لذلك أضافت بتحدٍّ: «كنت صديقتها منذ مساء الأمس. لذلك أنتم تعرفون!»

قال المدرس: «طفلتي العزيزة! ماذا فعلنا سيس؟»

«لا شيء».

«إذن كانت آن بخير مساء أمس؟»

«نعم، بخير».

«أنا أرى. حسناً، في هذه الحالة ربما سوف تسألين عنها في طريقك إلى البيت وتعرفين ما هي المسألة. أنا أعرف أنها تأتي إلى المدرسة من طريق مختلف، لكنك لا تمانعين في أن تمشي جزءاً إضافياً، هل هناك ما يمنع؟»

قالت سيس: «لا».

«أشكرك».

نظر الآخرون إلى سيس في دهشة، وسألوا في وقت الراحة الأخير: «ماذا تعرفين عن آن؟»

«لا أعرف أي شيء».

«نحن لا نصدق ذلك. نستطيع أن نقول إنك تعرفين شيئًا ما. المدرس يرى ذلك أيضاً».

كانوا بالأحرى يعبرون. لم يكونوا قادرين على أن يبتلعوا حقيقة ما بدا من أن سيس قد ذهبت إلى آن فجأة. بإمكانهم القول إنها عرفت شيئاً ولا تريد الحديث عنه.

«نحن نرى أنك تعرفين يا سيس».

نظرت إليهم عاجزة. هنا تواجد شيء غير عادي عن آن التي تعرفها سيس فقط. كانوا في طريقهم إلى البيت. من فوقهم سماء تتلبد. حتى

الآن فقط هناك ثلوج متناثرة. مضت سيس قدماً مع عدد من الآخرين. استطاعت أن ترى أنهم كانوا يفكرون. ما الذي تعرفه عن آن؟ وصلوا إلى المكان الذي ينبغي على سيس أن تغير عنده الطريق. توقفوا كلهم في طريق واحد. توجهت سيس باللوم.

«سألت بحدة: «ما هذا؟»

تركوها تذهب.

أسرعت متعجلة على قدر استطاعتها على الطريق إلى الكوخ الصغير. وحينئذ ـ هناك جاءت: الثلوج.

تساقطت الثلوج. استمرت الرياح معتدلة، الآن كان الظلام يحل؛ الآن من الممكن أن تتساقط ثلوج حقيقية. تمطر الآن فوق المشهد المتجمد. أرض صلبة وتلال متجمدة. لقد حدث بالفعل من قبل أن وصلت سيس إلى منزل الخالة. كان الفناء أبيض بالفعل حينما وصلت إليه.

لم تر روحاً.

ما الذي أعرفه عن آن؟

هم يظنون أن هناك شيئاً ما. بالفعل يوجد شيء ما، لكن هذا يخص آن ويخصني. أضافت لتكون في جانب الأمان وهي تحملق في الثلوج الشرسة، وربما يخص ربنا.

وقفة قصيرة مهمة على الطريق.

ومن خلال الثلوج المنهمرة، رأت الخالة تأتي بمجرد أن دخلت الفناء. ما الذي يعنيه هذا؟ الآن تأكدت أنها كانت قلقة مقدماً، كانت الخالة قادمة هناك كما لو كانت تترقبها. لماذا تفعل هذا؟

قفزت سيس عدة وثبات كبيرة من خلال الثلوج المتغربلة، الأولى لتضع قدماً على السجادة الجديدة. انتظرت الخالة، ضعيفة ووحيدة، تنظر بحزن من خلال الثلوج المبعثرة. صاحت قبل أن تصل سيس تقريباً إلى عتبة الباب: «هل حدث شيء لآن».

شهقت سيس: «ماذا؟»

هذا لغز محير.

كان عليها أن تقلب كل شيء حولها. كانت تقف على رأسها.

«إني أسأل لماذا أتيت أنت وليست آن؟»

لذلك كل ما استطاعت أن تفعله هو أن تطلق العنان للرعب: «لكن آن في البيت بالتأكيد، أليس كذلك؟»

في الحال طار الظلام من فجوة واسعة فغرت فاها. أسئلة مرتبكة من الجانبين. بحث سريع في المنزل والسندرة على غير هدى.

ركض عشوائي. لا يوجد تليفون في المنزل، لكن يوجد واحد في مكان ليس ببعيد. غادرت الخالة إلى التليفون.

قالت وهي تشرع في الركض: «سيحل الظلام قبل أن نستطيع أن نفعل أي شيء».

ركضت سيس إلى البيت لأمها وأبيها. الآن هي تحتاج إليهما، تحتاج إلى كل شيء ربما يقولانه. تناثرت الثلوج وبدأت بوادر الظلام في الظهور.

مرة أخرى جرت سيس على طول الطريق. الآن هناك الثلج الجديد الذي بدا مبهراً قشيباً. لم تقابل سيارات لم تكن هناك مسارات. لم تفكر في جانبي الطريق، فقط في العودة إلى البيت، وإعطاء التحذير.

٢

يقظة

آن قد اختفت.

الظلام يحل.

لا ينبغي!

لكن الظلام المبكر لن يتأخر بالصدفة، أمنيات يائسة؛ استمر الظلام في الحلول والتكاثف سريعاً.

تم تنبيه الناس في منطقة واسعة وتجمعوا ليقوموا بالبحث. لا يوجد سوى القليل جداً من الفوانيس، وحَوَّل المساء والثلوج المتساقطة عملية البحث إلى مسألة مربكة حائرة. جثم ضوء المصابيح والصيحات المطولة على آن في الثلوج والظلام المتكاثف. مشى الناس في صفوف، وقابلهم جدار الليل. عزموا على أن يسقطوا الجدار. لم يستسلموا أيضاً، هدموه على قدر استطاعتهم.

اختفت آن.

قال الباحثون: لو أن هذه الثلوج أتت بالأمس كان من الممكن أن تكون هناك مسارات. الآن، جاءت متأخرة وصعبت الأمور.

كانت سيس جزءاً من الاضطراب. لم يشغل أحد باله في أن تبادر بأي شيء. ركضت بحنجرة مثابرة. كان هناك صراع في البيت قبل أن تحصل

على الإذن.

«أنا ذاهبة يا أبي!»

قال أبوها وهو يسرع بالاستعداد هو نفسه: «نحن لن ندع الصغار يندفعون للخارج في الليل والعاصفة».

استمرت في التهديد.

ثم جاء سؤال صريح.

«ما الذي حدث حينما كنت مع آن ليلة أمس، هل حدث أي شيء على وجه الخصوص؟»

قالت سيس بفتور: «لا».

سألت الأم: «نعم، ما الذي قالته؟»، واصلت: «كنت تبدين غريبة قليلاً عندما جئت إلى البيت. ما الذي قالته؟»

«قالت سيس: «لن أخبركم!»، وندمت بمرارة. تأكدت من أنها قد قالت الكثير بالفعل. وثبة إلى الفراغ.

«بحق السماء، هل قالت شيئاً لك، لذا أنت تعرفين لماذا حدث ذلك؟»

«لا، أنا لا أعرف شيئاً عن ذلك، حتى ذلك!»

من حسن الحظ أنهم سألوا أسئلة ترجع إلى الوراء، بحيث إنها نفت بإدراك تام. فكرت في أنها هربت حينما أرادت آن أن تخبرها.

جاءت الأم وقالت: «أظن أنها من الأفضل أن تذهب معك. نحن لا نعرف ماذا يجري. أنت ترين كيف هي قلقة».

لذلك ذهبت سيس معهم. في البداية شارك عدة من زملاء الفصل،

لكنهم أُعيدوا إلى بيوتهم. ظلت سيس على حافة الجمع بحيث يمكن رؤيتها فقط في لمحات خاطفة.

سرعان ما حل المساء. استعدوا للبحث طوال الليل، إذا لزم الأمر. لا ينبغي ترك آن تضطجع بالخارج.

أين ينبغي أن يبحثوا؟ في كل مكان. لم يكن هناك من يمكن أن يرشدهم. منزل الخالة كان في المنتصف. الخالة نفسها شعرت بالإرهاق. نظر بضعة من الرجال فقط ليسألوا النصيحة: يخمنون هنا ويخمنون هناك.

قال شخص ما: «إلى اتجاه البحيرة».

«إلى البحيرة؟ إن المياه المفتوحة الوحيدة توجد بالقرب من النهر الكبير. بالتأكيد هي لا تستطيع أن تذهب إلى هذا الطريق؟»

«ما الذي ستفعله هناك؟»

«ما الذي يمكن أن تفعله في أي مكان؟»

«لا أستطيع التفكير في الطريق. السيارات يقودها كل أنواع الناس».

سكتوا وانزعجوا من هذه الهمهمات من رجل إلى رجل، همهمات خرج على إثرها الناس في الليل ولم يجدوا شيئاً. الطريق. الطريق غير الآمن أبداً والمفتوح دوماً. فضلوا ألا يفكروا في هذا.

قال شخص ما جاء مسرعاً على الطريق: «لقد اتصلنا تليفونياً منذ فترة طويلة بكل الاتجاهات».

«لكن هناك شيئاً آخر؛ ماذا عن الشلال، الكومة الكبيرة من الجليد التي تراكمت هناك؟ يُفترض أنه كان هناك حديث ما عن رحلة مدرسية إليه. هل يمكن أن تكون آن قد ذهبت بنفسها وتاهت هناك؟»

تدخلت الخالة. «لكن أن تغيب من المدرسة لتفعل ذلك؟ ليست هذه آن».

«كيف هي إذن؟»

«ألديها أي أصدقاء؟»

«لا، ليس لديها أصدقاء. هي ليست كذلك. بالأمس كانت إحدى البنات هنا لأول مرة منذ جاءت آن لتعيش معي».

«أوه؟ أمس؟ من هي؟»

«هذه البنت هناك سيس. لكن ليس بمقدورها أن تقول أي شيء اليوم. أنا سألتها. بالرغم من ذلك هناك شيء لا تريد أن تقوله. شيء ما كانتا تقهقهان عليه على ما أظن. لكن ليس هذا بمهم».

وقفت الخالة مرهقة في الثلوج خارج منزلها عاجزة بالكامل بلا جدوى. لكنها مازالت هي المركز.

قالت: «لماذا أتت الثلوج بعد ذلك؟ في الحال بعد ذلك».

أجاب شخص ما محبطاً: «هذا ما يحدث دائماً».

قالت الخالة: «لا».

أضاءت الأنوار في كل المنازل في تلك الليلة. وطأت الأقدام على الثلوج عبر كل الطرق وفيما بينها. تراقصت الفوانيس واهنة، وانطفأ نصفها من تساقط الثلوج بكثافة على الأجمات وعلى الأراضي المفتوحة.

تصاعدت الصيحات لكنها لم تصل إلى بعيد، فلم تكن قادرة على اختراق الظلمة المترامية.

اقترح شخص ما: «ستكون هناك فرصة أكبر لنجد شيئاً ما في الصباح عندما يضيء المكان». «لكنهم لا يحتملون الانتظار إلى ذلك الحين».

انهارت سيس على أجمة من الشجيرات. فهي لم تبتعد أبداً في أي وقت بما يكفي لأن تتجنب رؤية الأضواء وسماع الضوضاء. كان أبوها على اتصال معها إلى حد ما، لكنها ظلت على الحافة تماماً. فجأة انهارت فيما بين الأشجار عند التفكير في آن.

أين آن؟

«هاي هناك!»، هكذا صاح شخص ما قريب، لكنها لم تنتبه كان هناك صياح كثير.

لقد انهارت. ليس من الإعياء، لكن من نوع آخر من العجز.

لا ينبغي أن يحدث شيء لآن.

سمعت خطوات خلفها. أدرات رأسها ورأت رجلا شاباً على ضوء الفانوس الذي يحمله؛ رأت وجهه، والفرحة التي تسطع بدفء تجاهها: «هاي هناك!»

تلمست نبرة صوته. لكنه الآن وصل إليها.

قال: «لا، لا تفعلي. أنا أعرف ما تفكرين به. أنت لن تهربي مني!»

أحاط بها زوج من الأذرع القوية، شعرت بهما يتعلقان بها بقوة وفرحة عارمة.

«كنت متأكداً من أنني سأجدك ـ شعرت أنني سأجدك».

فهمت.

«لكنه لست أنا!»

ضحك.

«حاولي أن تجعليني أصدق ذلك. لكن يجب أن أقول إنك تحملين ملامحها إلى حد بعيد».

«قلت لك، لست أنا! إنني أساعد في البحث عن آن أيضاً».

قال الغريب وقد انطفأت فرحته: «ألست أنت آن؟»

بدا ذلك رائعاً، لكن كان عليها أن تقول: «لا أنا سيس».

فجأة، تراخت اليدان القويتان تماماً عنها لدرجة أنها سقطت لترتطم بأحد الأعمدة. قال الولد غاضباً: «من الأفضل أن تكفي عن مثل هذا العبث. سوف يظن كل فرد أنه أنت».

«يجب أن آتي معكم إلى هناك. أنا أعرفها. أنا أعرف آن».

قال برقة أكثر: «أوه، بالفعل؟»

لم تكن غاضبة منه كذلك.

«هل أصبت نفسك؟»

«لا، شيء بسيط».

«أنا لم أقصد أن... لكنني لم أستطع أن أراك تؤذين نفسك».

فرحة بسيطة في وسط التعاسة.

«لكنك لا يجب أن تخدعي الناس بهذه الطريقة، حينما تكونين فتاة صغيرة مثل التي نحاول أن نعثر عليها. نحن لسنا هنا من أجل اللهو. يجب

أن تعودي إلى البيت على الفور»، هكذا قال، وبدأ في العبوس مرة أخرى.

كانت سيس في حالة تحدٍّ. لم يتوجهوا للحديث معها كما لو أنها طفلة غير مرغوب فيها أرادوا أن يقصوها عن الطريق. قالت برعونة: «أنا الشخص الوحيد الذي يعرف آن. كنا معاً مساء الأمس».

هل هو تأثر بذلك؟ لا. سأل مباشرة نصف متردد: «هل تعرفين أي شيء إذن؟»

نظرت إليه. كان الفانوس بينهما، حتى أنهما استطاعا أن يريا عيني كل منهما الآخر بوضوح شديد. نظرت عيناه المستديرتان إلى أسفل وسبحتا بعيداً.

ندمت سيس على هذه الكلمات الطائشة. كان الجو متوتراً. في لمح البصر، وقعت في شبكة من صنعها. فقد انتشر سريعاً كالبرق، إن البنت الصغيرة سيس تعرف شيئاً ما.

كانت الدقائق ثمينة. وقبل مرور وقت طويل، أمسكت يد قوية بذراعها. لكن لم يكن هذا الولد الغريب ذو العينين اللتين تشبهان الرخام، كان هو الوجه الحجري لرجل عرفته، وجه حجري ومرعب، كما أنه غير طبيعي أيضاً.

«أهذا أنت سيس؟ يجب أن تأتي معي».

كانت سيس مخدرة.

«ماذا تريد؟»

«يجب أن تذهبي للبيت. ليس مسموحاً لك أن تظلي هنا بهذه الطريقة.

لكن هناك شيء آخر»، هكذا قال لها مما جعلها ترتعش.

كانت يده خشنة، كانت مجبرة على الذهاب معه.

قالت بتحدٍّ: «أخذت الإذن من أبي، أنت لا تعرف شيئاً عن هذا. وأنا لست متعبة».

«إذن الآن، تعالي. بعضنا يريد التحدث إليك قليلاً».

فكرت، لا!

تركها الرجل تمضي حينما وصل اثنان من الباحثين أيضاً، هي تعرفهم كذلك. جاءوا من الجهة التالية. عرفت بالفعل ما الذي كان يعنيه ذلك.

سألت لتستعد بنفسها: «أين أبي؟»

«هو ليس بعيداً، سوف أشرح الأمر. الآن أنصتي لي، سيس. أنت قلت إنك تعرفين شيئاً ما عن آن. قلت إنك كنت معها مساء الأمس».

«نعم كنت معها. كنت معها في منزلها لفترة».

«ما الذي قالته آن؟»

«أوه...»

«ما الذي تعرفينه عن آن؟»

راقبتها ثلاثة أزواج من العيون بقسوة في ضوء الفانوس. كانوا بالطبع ودودين؛ الآن كانوا خائفين وقساة مثل الحجر.

لم تجب.

«يجب أن تجيبي. ربما ينقذ هذا حياة آن».

بادرت سيس قائلة: «لا!»

« أنت قلت إنك تعرفين شيئاً ما عن آن، أليس كذلك؟»

«هي لم تقل هذا. هي لم تقل شيئاً عن هذا».

«ما الذي تقصده بهذا؟»

«إنها أرادت أن تذهب إلى أي مكان».

«يمكن أن تكون آن قد قالت شيئاً يساعدنا في البحث عنها».

«لا، لا يمكن».

«ما الذي أخبرتك به آن؟»

«لا شيء».

«هل تفهمين أن هذا خطير؟ نحن لا نسأل لنزعجك، نحن نسأل من أجل أن نعثر على آن. «أنت قلت ذلك...»

«كان شيئاً ما قلته فقط!»

«لا أظن كذلك. أرى أنك تعرفين شيئاً ما. ما الذي قالته آن؟»

« لا أستطيع أن أخبركم».

«لماذا؟»

«لأنه لم يكن هكذا، هي لم تقل هذا! وهي لم تقل شيئاً عن الاختفاء».

«قد لا تكون، لكنه هو الشيء نفسه...»

بدأت تصرخ: «اتركوني بمفردي!»

وقفوا فجأة. بدا الأمر خطيراً جداً حينما صرخت سيس بهذه الطريقة.

«اذهبي إلى البيت إذن سيس. أنت مرهقة. أظن أن أمك هناك».

«أنا لست متعبة. أنا أخذت الإذن بالبقاء. يجب أن أبقى».

«هل يجب أن تبقي؟»

«نعم أظن أنه يجب».

«لا يمكننا أن نبدد الوقت في ذلك. من المؤسف أنك لن تخبرينا بأي شيء. ربما سيساعدنا».

فكرت، لا. إنهم تركوها.

شعرت برأسها فارغة وغريبة. هناك طريق قريب إلى المنزل، لكن عليها أن تبقى طوال الليل. حامت حول نفسها، وبالقرب من الفوانيس، وبعد ذلك في الظلام الذي خبأها مرة أخرى. مرة أخرى، أوقفها رجل مختلف. لم يعبر عن دهشته من وجودها؛ كان مهموماً للغاية.

«أنت هناك، سيس. أريد أن أسألك شيئاً ما. هل تظنين أن آن ربما أرادت أن تذهب لتلقي نظرة على كومة الجليد في الشلال؟»

«لا أعرف».

«ألم تكن هناك خطط للمدرسة ككل للذهاب في مثل هذه الرحلة؟»

«نعم كانت هناك خطط لذلك».

«ألم تذكر أنها تريد أن تذهب إلى هناك بنفسها، كما تعرفين».

«هي لم تقل هذا».

لم يكن ذلك بالشيء المهم جداً، فالرجل كان حذراً بإفراط، لكن بالنسبة إلى سيس كانت هي القشة الأخيرة. وقفت تصيح نائحة بمرارة وتحد في وسط الثلوج.

قال الرجل: «يا إلهي، أنا لم أقصد أن أجعلك تبكين».

عملت سيس على أن تخرج: «هل أنتم ذاهبون إلى هناك؟»

«نعم ينبغي علينا أن نفعل بدون أي تأخير. نظراً لأنه كان هناك كلام حول هذا حديثاً في المدرسة. قال: «من الممكن أن آن احتفظت بهذا في رأسها من أجل أن تذهب إلى هناك، ومن ثم فقدت طريقها. سوف نمضي عبر النهر من النقطة التي يترك عندها البحيرة».

«لكن حينئذ...»

«شكراً لمساعدتك لنا سيس. أليس من الأفضل أن تعودي إلى البيت الآن؟»

«»لا، أنا قادمة معكم إلى النهر!»

«لا خوف! حسناً، يجب أن تتحدثي مع أبيك عن هذا. أظن أنه يمكن أن نراه هناك».

نعم، كان الأب هناك يقف نشيطاً وصارماً، مثل الآخرين.

«أنا أريد أن آتي أيضاً. أنت قلت إنه بإمكاني أن آتي».

«لا، كفى هذا».

«إنني قادرة على المشي مثلهم!»، هكذا قالت بصوت عالٍ في الجمع المشغول المتوتر، وشعرت بجسدها مشدوداً بنفسه مستعداً.

«أراهن أنها ستفعل»، هذا ما قاله شخص ما ممن أحبوا موقفها هناك متوقدة وشغوفة.

لم يجرؤ الأب على أن يعارضها بالطريقة التي نظرت سيس بها في هذه اللحظة.

«حسناً، حسناً، ربما صحيح أنك تستطيعين أن تتحملي. أنا يجب أن أذهب إلى مكان ما وأحدث أمك على التليفون. إنها جالسة تنتظرك».

بدأ الجمع يزحف في الظلام إلى النهر عبر حافة البحيرة باتجاه المصب. انتشروا للخارج كلما تقدموا في السير، لكنهم كانوا حريصين على البقاء مع بعضهم البعض. لم تكن الثلوج تسقط بغزارة الآن، لكنها تلسع في الوجه بلا انقطاع، والآن تتراكم بكثافة على الأرض مما يزيد من صعوبة السير. لم تلاحظ سيس؛ فقد امتلأت بشجاعة جديدة.

كان معظمهم لديه فوانيس. شكلوا بقعة ضخمة متذبذبة من الضوء ترتعش وتومض في طريقها فوق الروابي إلى النهر. كان مشهداً غريباً، كان غريباً أن تمشي في وسطه. امتلأت سيس بشجاعة جديدة.

تقوست البحيرة بعيدا في الليل مثل سهل أبيض مغطى بالثلوج. كان الثلج قوياً مثل الجرانيت، لذلك لا يمكن لشيء أن يحدث هناك. لم يكن أحد يتخيل أن آن قد تعبر هذا المدى الواسع تماماً من الجليد.

تخبطوا هنا وهناك على طول الطريق. ظلت سيس قريبة من الآن، حيث إنه تم قبولها معهم.

وصلوا إلى المصب، ووجهوا الضوء إلى المياه السوداء المفتوحة يمسحونها برفق من تحت حافة الجليد إلى أعلى بدون صوت. فحص الرجال المياه السوداء بعناية؛ كانت بشعة. لم يستطيعوا رؤية قصر الجليد من هنا. كان الشلال أكثر بعداً إلى أسفل، بعيداً على مدى السمع في كل هذا الاضطراب.

انساب التيار عميقاً في هدوء. انقسم الجمع، واستمروا عبر كلا الجانبين.

تساقطت الثلوج بكثافة مرة أخرى. تطقطق على زجاج الفوانيس حيث تذوب وتحجب توهجها. كان هناك ولد صغير منفعلًا ومتوترًا إزاء كل هذا، وزمجر من الثلوج المزعجة، وظهرت أسنانه بيضاء في أركان فمه: «أوقفوا هذا!»

في الحال، توقف. توقف كما لو كان المخزون قد فرغ. شعر الولد بالحرج وبدأ ينظر حوله بسرعة ليرى ما إذا كان أحد قد لاحظ. لا.

ملأت الثلوج الآن الهواء. رأى الرجال للمرة الأولى الآن كيف كانت هي ليلة صامتة هائلة. وقفت سيس إلى جانب المجرى الساكن الآتي من تحت حافة الجليد. من الممكن أن يختفي كل شيء ويُمتص إلى أسفل بعيداً هناك. لا تفكري في ذلك.

بدأوا يمشون إلى أسفل ضفتي النهر، عبر شواطئ وجزيرة فيما بين الرُّبا. انحدرت الأرض وعثر النهر على صوته.

أسرعوا! اندفعوا عبر الحفر والأحجار. لكن كان عليهم أن ينظروا بحذر في الوقت نفسه.

حافظ الموكب المضطرب المتذبذب من الفوانيس على الصحبة عبر نهر يتلألأ في الزخارف الشجرية الجليدية الصلبة التي تحف به. وبينهما كانت المياه سوداء. لم يكن الوميض المنبعث من الفوانيس يصل إلى مسافات بعيدة. وتوجد هناك خلفه الأعماق المجهولة. بعيداً تحته، يمكن أن يسمعوا الشلال.

لم يكن هناك ما يمكن رؤيته عبر ضفتي النهر. توقعنا هذا، لكن مازلنا، كانت تلك هي الكيفية الخاصة بالبحث.

صيحة جاءت من أول من هبط إلى أسفل: «تعالوا وانظروا!»

في الحال رأوا هذا كلهم. رأت سيس هذا في الحال. لم يكن لدى أحد من الرجال وقت ليمشي إلى الشلال الذي جرى الحديث عنه كثيراً جداً هذا الخريف، وقد كبر قصر الجليد كثيراً جداً، فقط مؤخراً. فخلال فترة الصقيع، اكتسبت المياه بالتدريج سطحاً أكبر لتبني فوقه. رفع الرجال فوانيسهم تجاه الشلال المنحوت مشدوهين مما شاهدوه.

نظرت سيس عليهم، وعلى القصر، والظلام، والفوانيس ـ إنها لن تنس أبداً هذا التسارع.

هبط الجمع إلى المنحدر من كلا جانبي الشلال، زاحفين على الجليد غير المستوي، يضيئون بفوانيسهم تجاه كل الشقوق التي استطاعوا أن يجدوها.

كان القصر ضعف حجمه في هذه الأضواء المتراقصة. كان الشلال عالياً، وتجمعت المياه من الأرض إلى القمة العالية. سطعت فوانيس رجال على الأجناب الشفافة اللامعة. صلبة ومغلقة؛ لا يوجد على الثلوج موضع لقدم، لكنها مكومة عند القاع. أعلى إلى القمة، لكن الثلوج تمددت ووضعت غطاء على الشقوق فيما بين القمم والقباب. واضطربت أضواء الفوانيس لمسافة قصيرة على الأجناب؛ كانت الجدران الجليدية إلى أعلى رمادية في الظلام. دوى عميق بالداخل، مثل حيوان استشعر نذر الخطر، إنه هدير النهر المنغلق ذاتياً.

لكن القصر كان مظلماً وميتاً؛ لم يأت ضوء من الداخل. لم يستطع الرجال أن يروا كيف كان هو من داخل الحجرات؛ لم تصل أضواؤهم إلى بعد كافٍ. شعر الباحثون في الوقت نفسه كأنهم مسحورون.

هدر الماء داخل القصر، اندفع بنفسه يزبد ويلطم أسفل الصخرة، وينبثق ليتجمع ثانية كرغاو ورذاذ من تحت الصروح والجدران، ليعود إلى مجراه العظيم مسرعاً كما كان من قبل. وفي منتصف هذا الليل الحالك المدلهم، بدا أنه من المستحيل تخمين مداه.

كان القصر مغلقاً.

نظرت سيس لترى ما إذا كان الرجال قد أُحبطوا. لا. لم يظهروا شيئاً من هذا. وعلى كل حال، هذا يتوقف على ما الذي يتوقع كل منهم أن يجده. كل شيء يتوقف على هذا على وجه التحديد.

لكن الرجال توقفوا تماماً.

كيف حدث ذلك؟

لم يكن أحد يهتم بأمر سيس الآن. تركوها في صحبة أبيها، ولم يوجهوا إليها أسئلة. ببساطة، مضوا في البحث. لم يستطع أحد أن يخترق إلى مدى في كتلة الجليد أبعد وأكثر مما فعلوا. تجمعوا من كلا الجانبين في الثلوج على قمة القباب، وصاحوا ينصحون بعضهم البعض ويحذرون من هدير الشلال.

جاءت صيحة: «توجد فتحة هنا على كل حال!»

هرعوا إلى الموقع. تقريباً، مدخل مخفي بين الجدران الخضراء. شق اثنان من أصغرهم طريقهما إلى الداخل رافعين الفانوس إلى أعلى.

لم يكن هناك أيضاً شيء. فقط نسمة جليدية أكثر برودة من الخارج، سرت قشعريرتها إلى العظام. كان الجو في الخارج معتدلاً الآن. غرفة جليدية، ولا يوجد مزيد من الفتحات. من خلفها زمجر الهدير الأبدي الأعمى.

صاح كل منهما على الآخر في الغرفة الهادرة أنه لم يكن يوجد شيء هناك! ثم طوفوا بالضوء مرة أخرى، ووجدا فجوة أصغر من اتساع كف اليد، والمياه تبقبق على حوافها.

لا شيء.

انضغطا خارجين إلى الآخرين. قالا: «لا شيء».

«ربما توقعتما هذا».

نظر الرجال مغلوبين على أمرهم أمام المبنى الجليدي القائم عالياً في الهواء. كانت وجوههم حزينة في تلك الليلة. قال الشخص الذي اضطلع بالقيادة: «لن نتخلى عن هذا في عجلة».

لم يستطيعوا أن يخمنوا مدى المعنى الذي أراده. لابد أن كل شخص منهم شعر باللغز هنا. نظرت سيس إلى أبيها. لم يحاول أن يقودهم. كان ببساطة واحداً من باقي الأفراد.

لكن شخصاً ما في الجمع، مضى بصورة غير متوقعة إلى سيس. كانت متعبة قليلاً، نعم، متعبة جداً بالفعل، لكنها متوترة إلى حد أنها نسيت ذلك. نظرت بخوف إلى الرجل: سيكون هناك مزيد من الأسئلة.

«هل قالت آن أي شيء عن القدوم إلى هنا؟»

«لا».

انبرى والدها يقول بحدة: «يكفي هذا الآن! لن نعرض سيس لمزيد من الضغط».

جاء القائد أيضاً، وقال بسرعة وحسم إلى السائل: «أخبرتنا سيس بما تعرف».

قال أبوها: «أظن ذلك أيضاً».

قال السائل منسحباً: «أنا آسف، لم أقصد ضرراً».

نظرت سيس إلى الرجلين الحازمين نظرة امتنان. قال القائد: «سنمر عليه كله مرة أخرى. هناك فجوات كثيرة يمكن أن تكون قد وقعت فيها، إذا كانت قد جاءت هنا وقررت أن تتسلق».

لم ينكر أحد هذا. شرعا في العمل. بعث القصر الجليدي الغريب بسحر رائع، وكانا الشخصين المناسبين ليفتحاه وليسمحا لنفسيهما أن يصمما عليه في حالتهما الذهنية.

أعلى مرة أخرى.

مرة أخرى وقفت سيس على قدميها وراقبت القصر الجليدي يعود إلى الحياة. اقترب الرجال منه من كل جوانبه مرة أخرى. دارت الفوانيس على الشقوق غير المنتظمة، إلى أعلى بين القمم وخلال الزخارف. لم يكن مجرد قصر؛ كان يشبه قصراً مضيئاً من أجل أحد الأعياد، حتى وإن كانت الأضواء من الخارج.

شربت سيس من المشهد الليلي في حالة من التسامي، لأنه كان مسموحاً لها بالعودة إلى البيت في حالة الصدمة لأنها على حساب آن. بكت قليلاً، لكن أحداً لم يلحظ؛ لم تستطع أن تساعد نفسها.

فكرت في أنها ستتحمل أي شيء مهما حدث. إنهم لن يعودوا إلى البيت ثانية من هنا. فمن القصر، هم سيتتبعون النهر إلى حيث تبتلعه بحيرة متجمدة أخرى. إنها ليست ببعيدة جداً؛ فالشلال يقع تقريباً بين البحيرتين تماماً.

استمر الرجال في البحث. كانت لديهم حياة ونور في جانبهم. كانوا يزورون قلاعاً مجهولة، إنها تشبه قلاع الموت. إذا طرق أحدهم على الحائط بعصاه، تبين أنها صلبة كالصخر. فالضربة تتراجع وتهز ذراعه. لا شيء يُفتح. في الوقت نفسه هم يطرقون.

٣

قبل أن يغادر الرجال

لن يغادروا، إنهم ينتظرون. لا يمكنهم أن يسمحوا لأنفسهم.

البناء الجليدي يرتفع فوقهم غامضاً قوياً، تختفي قممه في الظلام، والشتاء في عنفوانه. يبدو أنه يعد نفسه ليقف أبدياً ـ لكن الوقت قصير مضلل، سيسقط يوماً ما حينما تبدأ الفيضانات.

الليلة يمسك صارماً بالرجال. ينتظرون أطول مما تحتمه المهمات. ربما غير مدركين لهذا. إنهم متعبون، لكنهم لا يستطيعون أن يعلنوا نهايته، ليست لديهم إرادة للاختيار بين ما إذا كانوا ينتهون أم لا. فالقصر الجليدي يحوي حياة بين جنباته.

هم أنفسهم قد أعاروه حياة؛ ضوء وحياة لكتلة الجليد الصماء، وللوقت الصامت الذي تلى منتصف الليل. قبل أن يأتوا، كان خرير الشلال يهدر قنوطاً ولامبالاة، واكتمل تقريباً موت التمثال الهائل من الجليد وران الصمت. لم يعرفوا ما الذي جاءوا به معهم قبل أن يتورطوا في اللعبة بين ما كان وما هو آت.

لكن ليس هذا هو أيضاً.

هنا شيء ما غامض. إنهم يستحضرون ما لديهم من أحزان ويحولونها إلى لعبة منتصف الليل للضوء وإثارة الموت. هذا يجعل الأشياء أفضل،

ومن خلالها يخادعون أنفسهم بالسحر. متناثرون على زوايا الجليد، تعكس الفوانيس المصوبة ومضات، تقابل الأضواء المنبعثة من الشقوق والمنشورات العاكسة. تضيء حزم ضوئية جديدة ساكنة، وتنطفئ بسرعة تامة مرة أخرى من أجل أن تنفرج. تعرفوا عليها جيداً إلى حد أنهم ارتجفوا. إنها غير آمنة، لكن إذا رغبوا في أن يستمروا، فهذا فقط لأنه يبدو أن هناك واحدة.

الرجال يُجبرون على أن يغادروا، لكنهم يفعلون ذلك كارهين على مضض.

الرجال تائهون في اللعبة في قصر الجليد. يبدون ممسوسين، يبحثون بشكل محموم عن شيء ما ثمين، ذلك الذي أصبح كارثة شملتهم هم أنفسهم. إنهم غامضون، يهبون أنفسهم على مذبح التضحية في حالة مسحورة، قائلين: إنها هنا. وقفوا أسفل الجدران الجليدية بوجوه مشدودة، مستعدين لاقتحام أغنية الحداد قبل إغلاق القصر القهري. إذا كان أحدهم متهوراً بما يكفي لأن يبدأ، سوف يلحق به الجميع.

وقفت سيس الفتاة الصغيرة تراقبهم، وهي فاغرة فمها، وتدرك أن هناك شيئاً ما. تشاهد أباها يقف مستعداً؛ ربما سيلحق بهم في الدخول. وقفت سيس ترتعش وتستمع، تنتظر أن تنقض الجدران إرباً. وقفت مروعة مع الرجال الكبار.

لكن لم يكن هناك أحد متهور بما يكفي، لذلك لم تبدأ الأغنية. إنهم باحثون مخلصون؛ يعملون على المحافظة على أفكارهم سرية تحت القفل والمفتاح.

يقول القائد: «ابحثوا حوله مرة أخرى». هو نفسه محصور به، ويستطيع أن يفعل أشياء غير متوقعة. هم يعرفون أن الوقت ثمين. تسلقوا بمشقة الجليد المنزلق والسطح المغطى بالثلوج، لم يجدوا شيئاً. تنساب المياه مبتعدة عن أعماقها المخبوءة تحت القصر وأمامه. يجب أن يستمروا أيضاً. يقول القائد: «يجب أن ننطلق». فهو قد انضم إلى أغنية تفطر القلوب.

٤

حمى

كانت آن تقف في المدخل، تنظر.

لكن ألم تُفقد آن؟

لا. آن تقف في المدخل، تنظر.

«سيس؟»

«نعم؟ لماذا لا تدخلين؟»

أومأت ودخلت الحجرة.

سألت: «ما هذا سيس؟» لكنها سألت بصوت مختلف. اختلفت، لم تكن هي آن، لكنها الأم.

كانت سيس ترقد في حجرتها الصغيرة، لكن كل شيء كان غامضاً. فهي رأت آن، ثم كانت هي أمها. كانت تتقلب في الضباب.

«أنت لست على ما يرام سيس. حرارتك مرتفعة جداً».

تحدثت الأم بنبرة صوت حليم.

شرحت: «كان من الصعب عليك أن تخرجي إلى الغابة الليلة الماضية، أنت عدت مريضة كما ترين».

«لكن آن؟»

«آن لم يجدوها، على حد ما أعرف. إنهم بالخارج يبحثون. لقد عدت مريضة مبكراً هذا الصباح».

«إذن كنت معهم طوال الليل!»

«نعم، كنت، لكنك لم تصلي إليها».

«كنا فوق الكومة الكبيرة من الجليد وأسفل النهر أيضاً ـ لكن بعدئذ لا أتذكر المزيد».

«لا، لم تواصلي كثيراً، حيث أحضرك أبوك إلى البيت. على الأقل نجحت في أن تمشي بقدر ما. حينئذ جاء الطبيب و...»

قاطعت سيس: «ما هو الوقت الآن؟ إنه المساء؟»

«نعم، إنه المساء ثانية».

«وأبي؟ أين هو؟»

«بالخارج مع فريق البحث».

لا بد أنه أقوى مني على أية حال، هكذا فكرت سيس، مسرورة بالفكرة.

واصلت الأم: «كانت بقية الفصل هناك اليوم أيضاً. المدرسة مغلقة اليوم».

بدا ذلك غريباً. أغلقت. إنها قد أغلقت. رقدت تلعب معها.

«كانت مثل آن تقف في المدخل. لا أظن أنها يمكن أن تمضي بعيدا».

«لا يمكن لأحد منا أن يقول. لكنها لم تكن في المدخل. كانت ترى كمية من الأشياء اليوم. كنت تتحدثين عنهم على أية حال».

ما الذي يعنيه هذا؟ شعرت في الحال بأنها عارية، وجذبت غطاء الفراش إلى أعلى.

«ما الذي كنت أفعله؟»

كان عليها أن تغطيها بكيفية ما، كان ينبغي أن تبدأ الحديث عن شيء ما.

«آن لم تمت!»

أجابت الأم بتأنٍّ: «لا، أنا متأكدة أنها لم تمت. سوف يعثرون عليها سريعاً. ربما قد وجدوها بالفعل».

نظرت بتردد على سيس: «وإذا كان هناك أي شيء أنت...»

استلقت للنوم بأسرع مما استطاعت.

لكن بعد فترة نامت بالفعل. حينما استيقظت، تحسنت حرارتها. لم تر شيئاً في غرفة النوم، فيما عدا ما ينبغي أن يكون هناك. رفعت نفسها قليلاً ـ ومن أول صوت، دخلت أمها مرة أخرى.

«نامت لفترة طويلة. الوقت متأخر من المساء. نوم هادئ عميق».

«متأخر في المساء؟ أين أبي؟؟»

«في الخارج يبحث».

«ألا توجد أنباء؟»

«لا، لم يجدوا شيئاً، ولا يستطيع أي فرد أن يدلهم. خالتها لا تعرف شيئاً. إنهم لا يعرفون ماذا يفعلون، سيس».

ها هو مرة أخرى الشيء الذي سيدمرها. كانت بين يديها، مسالمة. لم تعرف شيئاً يمكن أن يقدم أية مساعدة.

«جاء أبوك قبل فترة قصيرة بينما أنت نائمة. يريد أن يسألك عن شيء ما، لكنه لم يشأ أن يوقظك. قال إنه شيء مهم».

لم تكن لدى أمها أية فكرة كيف كانت قريبة من نقطة الانهيار.

«هل تسمعيني، سيس؟»

لم تكن هناك فائدة من النوم مرة أخرى الآن. ما الذي قلته بدون أن أعرف؟ هل أنا قلت أي شيء؟

«سيس، حاولي أن تتذكري ما الذي تحدثتما عنه بالفعل. ما الذي قالته لك».

رقدت سيس، تجذب البطانية، تشعر باقتراب شيء ما غير مألوف. استمرت أمها: «هذا ما قاله أبوك من أنه يجب أن يعرف. ليس فقط أباك، لكن كل من يبحثون يريدون أن يعرفوا إذا ما كان يمكنك أن تعطيهم بعض الإشارات».

«أخبرتك، لم يكن هناك شيء!»

«لكن، هل أنت متأكدة سيس؟ فبينما كنت محمومة ذكرت قدراً كبيراً عكس ما تقولينه. تحدثت عن أغرب الأشياء».

حدقت سيس فيها في خوف.

«من الأفضل لك أن تخبرينا. لا أريد أن أهددك، لكن هذا بالغ الأهمية. هذا كله يتم من أجل آن».

شعرت سيس بشيء غير عادي فوقها، شعرت بها تمسك بها.

«لكن حينما أقول إنني لا أستطيع أن أقول أي شيء ، لا أستطيع أن أفعل أكثر من هذا، أليس كذلك؟»

«سيس...»

في الحال، بدأ كل شيء يظلم، في الحال بدا كل شيء غريباً ومشؤوماً. أسرعت أمها إليها. صاحت سيس: «هي لم تقل هذا، أنا أقول لك!»، واكتمل الظلام.

وقفت أمها مروعة وحاولت أن ترفع سيس. رقدت سيس تتلوى وتنتحب.

«سيس، نحن لن نفعل لك شيئاً!... هل تسمعين؟... سيس، أنا لم أعرف...»

٥

في أعمق الثلوج

إذن أين آن؟

بدا أن الإجابة تقول: الثلوج. على نحو أعمى لا معنى له.

على نحو أعمى طوال اليوم. لم يعد الجو بارداً، لكنها تمطر ثلجاً بلا انقطاع. بعدئذ جاء الليل، ومعه طُرح السؤال العاجل: أين آن؟

الثلوج، جاءت الإجابة من البيت والمنزل. إنه شتاء حقيقي. واختفت فيه آن. فعلى الرغم من كل بحثهم، لم يعثروا لها على أثر. كان هناك حجاب كثيف حول آن، مثل الحال في العواصف الثلجية.

لم يستسلم الناس؛ كان هناك بعض البحث قائمًا باستمرار. لكن لم تكن هناك فائدة من الخوض في الجروف العميقة للغابات. ظلوا يراقبون ويبحثون في الطرق الأخرى.

في لحظة، عرف كل شخص عن آن، آن المجهولة. كانت هناك صور في الصحف؛ رأى الناس صورة فوتوغرافية للتعريف بها ملتقطة هذا الصيف.

كانت البحيرة العظيمة ممتدة صامتة، لم تعد متفجرة، غير موجودة. مازال هناك المخرج الواسع الرائع حيث تتدفق منه المياه بوداعة فيما

بين الضفاف المستديرة الناعمة، لكن أحداً لم يذهب إلى هناك. وفي مكان ما أبعد عبر قصر الجليد المخفي، توقف أيضاً، فقد شكله تحت تأثير الانجرافات المرتفعة. فلم يشق أحد طريقه هناك، حيث تغوص الزحافات عميقاً في الثلوج.

لكن الليلة الوحيدة هناك أمام الجدران الجليدية، ثبتت نفسها في ذاكرة الناس، وتحولت إلى أسطورة حول آن: كانوا متأكدين من أن آن قد تسلقت إلى أعلى هناك، وسقطت في النهر، وحملها بعيداً.

مازالوا يمسحون النهر إلى أسفل من الشلال حيث البرك. وقفت أوتاد مكومة ومغلفة بالجليد على الضفاف الثلجية في الليل، تشير إلى أعلى. كل الطرق تقود إلى بيت الخالة. تجمع كل شيء هناك، تقابلت كل خطوط الاتصالات عند هذه المرأة الوحيدة، ملاذ آن الوحيد. تتقاطع الممرات المظلمة هناك عند نقطة تقاطع واضحة غير دامعة.

قالت الخالة: «أفهم».

قالت: «شكراً لكم. لا فائدة».

إن آن هي مرساة الحياة.

صورة للاستعلام مأخوذة الصيف الماضي. آن، أحد عشر عاماً. كانت تقيم بصفة دائمة عند خالتها.

أعطى عنها التقارير هؤلاء الذين أخذوا دورهم بالمسح في هذا اليوم. ظلت عصيهم بالخارج بينما كان الرجال المتعبون يسردون يومهم إلى الخالة التي كانت دائماً ودودة. بحث آخرون مع بزوغ فجر الصباح

التالي. ظلت تمطر ثلجاً طوال الليل. سيكون شتاء عامراً بالثلوج.

استمعت الخالة إلى التقارير من ثاني أكبر مجموعة، تلك التي كانت تحاول أن تكتشف ما إذا كانت آن على قيد الحياة. لم تكن هناك أنباء جديدة.

«أنا أرى جيداً. أشكركم كثيراً».

كان عليها أن تستقبل الناس الذين يبحثون عن سؤالها عن كل شيء ربما يلقي الضوء على المسألة.

لم تكن لديها معلومات لتدلهم عليها. لقد وجدوا امرأة عجوزًا ودودة. لابد وأنه كان هناك فارق كبير في العمر بينها وأم آن. نظروا على الصورة التي رآها كل شخص.

«أُخذت الصيف الماضي، أليس كذلك؟»

أومأت الخالة. كانت متعبة من هذا.

إن تعبير: أُخذت الصيف الماضي، جعل الصورة مفروضة منذ البداية بالفعل. لم يكن لها معنى، لكنها حدثت. كان من المستحيل أن تخمن نوع السحر الذي اكتسبه الوجه، لكنه اكتسب شيئاً ما. مأخوذة الصيف الماضي. نظروا إليها ولن ينسوها.

نظروا كذلك مستفسرين على الخالة التي كانت مجبرة على الخضوع لكل ذلك. لم تنظر بقوة فعلية؛ لكنهم تأكدوا من أنها كانت قوية للغاية في رباطة جأشها.

كان عليها أن تجيب عن سؤال واحد لم يكن من الممكن تفاديه: «ماذا كانت تشبه آن؟»

«كنت مغرمة جداً بها».

كان هذا كل شيء.

شعر هؤلاء الذين سمعوا هذه الشهادة من الخالة نفسها أنها كانت أجمل إجابة يمكن أن تُعطى. لا تحمل أثراً لعدد المرات التي قيلت فيها. شعروا أنه ينبغي عليهم أن ينظروا إلى الصورة فترة أطول.

«تبدو مستغرقة في التساؤل بطريقة ما، أليس كذلك؟»

«نعم، ماذا عنها؟»

ماذا عنها؟ لا شيء.

«فقدت أمها في الربيع. كانت كل ما كانت عليه. لذلك لديها شيء ما تتساءل عنه، ألا تظن ذلك؟»

تساقطت الثلوج خارج النافذة لتسيل على كل المسارات.

٦

الوعد

وعد في أعمق الثلوج من سيس إلى آن:

أعدك ألا أفكر في أحد فيما عداك.

أفكر في كل شيء أعرفه عنك. أفكر فيك في البيت وفي المدرسة وفي الطريق إلى المدرسة. أفكر فيك طوال اليوم، وفي الليل إذا استيقظت.

وعد في الليل.

أشعر بك قريبة إلى حد أنني أستطيع أن ألمسك، لكنني لا أجرؤ.

أشعر بك تنظرين إليّ عندما أرقد هنا في الظلام. أتذكر كل هذا وأعد أن أفكر فقط في ذلك، في المدرسة غداً.

لا يوجد أحد آخر.

سوف أفعل هذا كل يوم، طالما أنت راحلة.

وعد مهيب لأحد صباحات الشتاء:

أشعر بك تقفين على الممر، تنتظرينني حتى أخرج. ما الذي تفكرين به؟

أعدك، لن يحدث ثانية، ما حدث بالأمس. هذا لم يكن مهماً! لم يعد

أحد عداك.

لا أحد، لا أحد آخر.

يجب أن تصدقيني حينما أقول لك هذا، آن.

تجديد الوعد من سيس إلى آن:

لا يوجد أحد آخر. لن أنس ما وعدت به، طالما أنت راحلة.

٧

آن لا يمكن أن تمحى

لذا لا يمكن أن تُمحى آن. فهذا شيء هبط في غرفة نوم سيس. هناك اتخذ القسم الغالي شكله.

بعد أسبوع استطاعت أن تنهض. أسبوع من الثلوج التي تضرب زجاج النافذة، وكثير من ساعات الأرق الليلي، مع المعرفة بأن الثلوج تتساقط أعنف من أي وقت مضى ـ لأن أي شيء حول آن ينبغي أن تتساقط ثلوجه. تطبع بصمتها. ينبغي التركيز على أنها ذهبت من أجل الخير، أن البحث عديم الجدوى.

حينئذ تصاعدت المقاومة قوية وساطعة. واتخذت الوعود شكلاً. كذلك تشكلت حينما سمعت كيف أن التقارير من أطراف البحث قد تلاشت؛ حينما بدا أن كل شيء غير ذي جدوى.

لن تضيع. هي لن تضيع. قررت سيس هذا في حجرتها.

لم يحضر أحد ليزعجها بالأسئلة بعد ذلك. إن شخصاً ما قد أوقف ذلك. جزعت من الذهاب لرؤية الخالة؛ سوف تضطر أن تذهب بمجرد أن تنهض من فراشها، إنه الشيء الأول تماماً الذي يجب أن تفعله.

وإذا توقعوا أن تأتي الخالة هنا لتسأل سيس، إذن هم ممتنون لأنه لم

يصدر منها شيء. لم تكن هناك علامة منها. لكن تم إخبار سيس أنه بمجرد أن يُسمح لها أن تنهض من فراشها سيتعين عليها أن تذهب إلى هناك.

الصورة المشعة من تلك الليالي التي كانت فيها محمومة: آن، لم تضع، لم تمت، تقف هناك كما فعلت في ذلك الوقت في حجرتها.

مرحباً، سيس.

ثم نهضت سيس. غداً ستبدأ في الذهاب إلى المدرسة ثانية، وخافت من ذلك. ستذهب اليوم لترى الخالة، الآن تُركت بمفردها. لم تكن هناك أسئلة لتوجه إليها. انطلقت من البيت. نهار شتاء ساطع. سألت أمها بحذر نوعاً ما عما إذا كانت ستذهب معها لترى الخالة؟ قد يكون الذهاب إلى هناك صعباً من عدة وجوه. بدا كما لو أن الأم لم تكن متأكدة من إرسال سيس.

قالت سيس على عجل: «لا، لا ينبغي».

«لماذا لا؟»

«لا أحد يأتي معي».

حينئذ تدخل الأب: «من الأفضل أن تذهب أمك معك اليوم، سيس. ألا تتذكرين كيف كان الأمر، حينما تم سؤالك عن شيء أو آخر؟»

قالت الأم: «سوف تسألك عن آن».

«لا».

«سوف تفعل. سوف تسأل عن كل شيء. ربما تكون آن قد أخبرتك. لن تسألك كثيراً إذا كان معك شخص آخر».

قالت سيس خائفة: «لن يأتي أحد معي».

قالا مستسلمين: «وهو كذلك إذا كنت مصرة، افعلي كما ترغبين».

عرفت سيس أنها يجب أن تترك أمها تذهب معها. لقد تألم والداها. لم يعرفا أنه ينبغي أن تكون بمفردها مع الخالة.

مشت سيس سريعاً إلى المنزل المعزول. مالت الأشجار حوله من ثقل الثلوج. بدت مفرغة، لكن الطريق المؤدي إلى عتبة الباب تم تنظيفه. لابد وأن شخصاً ما قد فعل ذلك؛ لا تستطيع الخالة أن تقوم به بشكل جيد. لابد وأن شخصاً ما يهتم بها، ويأتي لينظف لها الممر. ربما لم تكن بمفردها بعد كل شيء؟ دخلت سيس، والخوف يتملكها.

كانت الخالة بمفردها.

قالت بمجرد أن فتحت سيس الباب: «أوه، إنه أنت، كم هو جميل أن تأتي. هل أنت بخير مرة أخرى؟ سمعت أنك كنت مريضة بعد هذه الرحلة إلى النهر».

«أنا بخير مرة أخرى الآن. سأبدأ الدراسة غداً».

فجأة شعرت بعدم الخوف. بدلاً من ذلك كانت آمنة وصحيحة لكي تجلس هناك.

استمرت الخالة: «عرفت أن هذا هو السبب في أنك لم تأت، لأنك لم تقدري. لم يكن بسبب أنك لم تجرؤي، أو بسبب أنك اعتقدت أن ذلك

سيكون محرجاً. لكنني كنت أتوقعك».

لم ترد سيس.

تركتها الخالة لكي تجلس لفترة قصيرة. ثم جاءت وجلست إلى جانبها.

قالت: ربما تودين أن تسأليني عن آن؟ يجب أن تسألي إذا أردت».

قالت سيس التي كانت تعد نفسها للأسئلة: «ماذا؟»

«ما الذي تريدين السؤال عنه أكثر شيء؟»

قالت سيس: «لا شيء».

سألت الخالة: «هل هو سر كبير؟»، ولم تفهمها سيس.

بعدئذ، تساءلت: «أليسوا بسبيلهم أن يجدوها سريعاً؟»

«آمل أنهم سيفعلون في كل يوم، لكن...»

ألم تعد الخالة تصدق هذا؟ بدا صوتها غريباً قليلاً.

«هل تريدين أن تنظري؟»

«نعم».

فتحت الخالة باب الحجرة الصغيرة. أخذت سيس نظرة سريعة لترى إذا كان كل شيء كما كان من قبل. المرآة، المقعد، الفراش، الألبوم على رفه. كان ذلك هناك. بالطبع، لم تمر أيام كثيرة منذ...

لكن لا ينبغي تشويش أي شيء. يجب أن يبقى كذلك حتى تعود.

قالت الخالة: «اجلسي في المقعد».

جلست سيس في المقعد، كما فعلت المرة الأخيرة. جلست الخالة

على حافة الفراش، كانت بالأحرى غريبة. وبعدئذ انفجرت سيس: «لماذا هي كذلك آن؟»

سألت الخالة بحذر: «أليست آن كما يجب أن تكون إذن؟»

كانتا حذرتين في الكلام كما لو كانت آن على قيد الحياة.

ردت سيس بتحدٍّ: «آن جميلة».

«نعم، وألم تكن سعيدة أيضاً، الليلة الأخرى؟»

قالت سيس، ناسية: «لم تكن سعيدة فقط».

قالت الخالة: «أنا لم أعرف آن قبل أن تفقد أمها الصيف الماضي. بالطبع أنا قابلتها، لكني لم أعرفها. وأنت تعرفينها ربما أقل، سيس. لا يمكن أن تكون سعيدة حينما تموت أمها سريعاً جداً».

«هناك شيء ما آخر أيضاً».

بدأت سيس كما قالت. متأخر جداً. من الخطر أن تكون هناك.

قالت الخالة بلامبالاة: «أوه؟»

تراجعت سيس سريعاً: «أوه، أنا لا أعرف أي شيء. فهي لم تخبرني أي شيء عن هذا».

هناك، كانت مرة ثانية، في الدائرة المصيرية التي لم تقدر على الهروب منها. جاءت الخالة إليها. كانت سيس محرجة وعصبية. ما قالته آن كان لها، سيس، وليس من أجل خالتها الطيبة.

وقفت خالتها فوقها وقالت لها: «كانوا هنا يسألون ويسألون حتى تمزقت تماماً، سيس. يسألون عن كل شيء يخص آن. أنا أعرف أنهم

كانوا وراءك، أيضاً. إنهم مضطرون، ليس هناك شيء آخر يفعلونه».

توقفت. كانت سيس عصبية. لقد عرفت أنها سوف تنتهي هكذا إذا جاءت، لكن مازال... يجب أن تصبر نفسها.

«يجب أن تغفري لي سؤالك أيضاً، لكنني خالة آن ـ وأظن أن هناك فرقاً. فأنت ترين أنني لا أعرف شيئاً عن آن، أكثر مما عرفه كل شخص آخر. فهي لم تخبرني أي شيء، وهكذا كانت طوال الوقت. هل قالت آن أي شيء خاص لك هذا المساء؟»

«لا».

نظرت الخالة إليها. عادت سيس لنظرتها المتحدية. تراجعت الخالة.

«لا، بالطبع أنت لا تعرفين أكثر مما نعرف. فمن غير المحتمل أن تكون آن قد أخبرتك كل أنواع الأشياء في أول مرة تقابلينها».

قالت سيس، وقد قررت ألا تهتز الآن: «لا، ليس من المحتمل».

«لكن يفترض أن آن لن تعود؟»، سألت هكذا بدون تفكير، متسرعة، وندمت على ذلك.

«»لا ينبغي أن تسألي هكذا، سيس».

«لا».

لقد حصلت على إجابة عن أسئلتها رغم ذلك.

«ربما تعرفين جيداً أنني فكرت في هذا أيضاً. إذا لم تعد آن، سوف أبيع المنزل وأرحل بعيداً. لا أظن أنه يمكنني البقاء هنا ـ حتى لو أن آن لم تحضر إلا منذ ستة أشهر فقط».

أضافت: «حسناً، حسناً. لن نتحدث عن ذلك. لا يعني هذا أن آن لن تعود، فقط لأنها لم تفعل هذا حتى الآن. لن يضطرب شيء هنا، لا تقلقي».

فكرت سيس: كيف استطاعت أن تعرف هذا؟

قالت بقلق: «ينبغي أن أعود إلى البيت».

«نعم، بالطبع يجب. شكراً على قدومك».

فكرت، إنني لا أعرف شيئاً. لن آتي مرة أخرى.

كانت الخالة هادئة تماماً وودودة، كما كانت طوال الوقت.

أسرعت سيس إلى البيت. شيء جيد هذا الذي تم وما فعلته.

٨

المدرسة

وصلت سيس إلى فناء المدرسة الصباح التالي. كالمعتاد لم يكن هناك ضوء للنهار حينئذ.

أحاطوا بها في الحال. كان ثلاثة أو أربعة منهم هناك حولها بالفعل يحيطون بها. محبوبة.

«أوه، ها أنت هنا!»

«هل أنت أحسن؟»

«هل كانت ليلة مرعبة؟»

«وفقط فكري، إنهم لا يستطيعون أن يجدوا أثراً لآن!»

أجابت سيس بنعم ولا. حدقوا فيها قليلاً، لكنهم لم يطيلوا.

حدث مرة أخرى وسرعان ما كانت سيس تقف في حلقة محكمة. ليس فقط من البنات، بل ضمت الأولاد بالمثل. كانوا كلهم من العمر نفسه تقريباً. مع كل الضوضاء، هم يرغبون في أن يفعلوا أي شيء تقوله سيس لهم. رأت السعادة في عيونهم في هذه المقابلة الصباحية المتجددة. من الجميل أن ترى، لكنها لم تستطع أن تنس للحظة وعدها الجليل. إنه ها هنا سيجرى اختباره.

قلة منهم أخبروها: «نحن خرجنا نبحث، أيضاً».

«نعم أنا أعرف».

إن ما حدث لآن قد خيم على الأيام بالتوتر والصدمة، مع آن في المركز مثل شبح أسود. كان من الأسهل بالفعل التفكير فيها؛ لم يعودوا جزءاً منها ـ وها هي سيس تقف فيما بينهم تبدو تقريباً كما كانت من قبل. كانوا سعداء. لاحظت واحدة أو أخرى منهم، ممن كانت تحسبهم على قدم المساواة، لكنهم يقفون الآن مرتبكين وسعداء، أيضاً. لم تقدر أن تستمر في رصد ذلك ـ وبسبب أنها أعطت العهد، وستبتعد عنهم، تذكرت عشرات من الأشياء السعيدة التي فعلوها معاً. ولأنها بذلت الوعد، وقف كل هذا مثل اللقمة في حلقها.

كان الجو مشحوناً. ليس فقط لأنهم زمرة الأصدقاء، لكن لأن كل هذا يمثل بالنسبة إلى سيس توتراً واضحاً.

لم يستطع شخص ما أن يساعد في طرح سؤال يدور في ذهن كل فرد: «ما هذا؟»

بدأت سيس كما لو كانت تقطع الأمور بحد سكين، لكن الوقت كان متأخراً جداً لم يسعفها أن توقف السائل: «قالوا إن آن أخبرتك شيئاً ما، لن تـ...»

قال شخص ما بحدة: «صه!»

لكن متأخر جداً. لقد انطلق. في هذه اللحظة الفعلية، حينما ضعفت جداً مقاومة سيس، ومع ذلك يصب عليها مرة أخرى. وجدت نفسها تقفز عليهم. كانت مفعمة بالحيوية، واعتادت أن تكون قادرة على القفز، وذلك

لتخيفهم، لذا فقد قفزت عليهم تصيح بوحشية: «لا أحتمل ذلك!»

ثم ألقت بنفسها على كومة من الثلوج أمامهم مباشرة، وانفجرت في البكاء.

وقفت الدائرة في حيرة. لم يتوقعوا هذا؛ لم تكن تلك سيس التي عرفوها. تمددت سيس هناك تبكي. في النهاية ذهب أحد الأولاد بحذاء يغطيه الثلج، كان عطوفاً عليها، مال عليها يخفف من روعها. نظر الآخرون إلى بعضهم البعض أو نظروا بعيداً. كان الجو ملبداً ومظلماً مرة أخرى هذا النهار، وبدا أنهم يطلقون صفارات الاستهجان!

لم يفعل الولد هذا.

قال برقة شديدة، وحميمية: «سيس».

نظرت إليه.

هذا هو؟

كان دائماً في الخلفية من قبل؛ لم يهتم به أحد، فقط هو يتابع.

نهضت، ولم يقل أحد أي شيء. نفضوا الثلج عن ظهرها بضربات سريعة. بعد ذلك، وصل المدرس لحسن الحظ ليبدأ اليوم الدراسي العادي.

حصلت سيس على إشارة ودودة من مدرس الفصل، حينما جلسوا جميعاً في أماكنهم. كانت متأكدة أنه لن يسألها ذات مرة.

«جميل مرة أخرى، سيس؟»

«نعم».

«هذا جميل».

كان هذا كافياً. في الحال أصبحت الأمور أسهل. فكرت في الولد الذي تعاطف بحميمية. فهي تراه من الخلف من المكان الذي تجلس فيه. كانت ممتنة لأن النهار قد تحول إلى أن يكون أسهل مما توقعت، أسهل كثيراً مما رأته من هذه البداية التعسة. بدا أن هناك غطاء رقيقاً، يغطي على كل شيء.

نظرت سريعاً لترى هل ظل مكان آن خاليا. نعم، لا أحد قد انتقل هناك، حتى لو بدا مريحاً بالطريقة التي صُفت بها الأدراج.

ظلت سيس في سلام لبقية اليوم. وقفت بمفردها إلى جانب الجدار، وقبل الآخرون بهذا مؤقتاً. ربما كانوا مستحيين مما حدث هذا الصباح. ولم يكن هناك همس ولا ثرثرة حول آن والبحث؛ فربما قد همسوا فيما بينهم بالخارج وتعبوا من ذلك. اشتعل الموقف للحظة عندما وصلت سيس. وفي النهاية، لم تكن آن أبداً بالفعل واحدة منهم؛ كانت دخيلة تطلب الاحترام لا أكثر.

لاحظت سيس فجأة أنها كانت تقف إلى جانب الجدار، تماماً كما كانت آن تفعل، حينما يتعال ضجيج اللعب من مسافة قريبة كالمعتاد. بدا أن إحدى البنات قد أخذت القيادة في فترة قصيرة من الوقت.

وأنا سأقف هنا. أنا وعدت.

استمرت الضوضاء تقريباً.

لم تتأمل سيس كثيراً في مجرد استمرارها بهذه الطريقة، لكنها بالأحرى تعجبت من مجرد أنها تقف بطريقة غير مألوفة الآن مثلما كانت تفعل آن. شعرت كما لو أنها بدأت، ثم استراحت.

صححت الأيام نفسها وتجمعت سريعاً. جاء عيد الميلاد كالمعتاد. ليس كالمعتاد بالنسبة إلى سيس على الرغم من ذلك، لأنها مكثت في البيت ولم تدع أي شخص. سمحوا لها أن تفعل ما يحلو لها؛ وتأكد كل فرد بالتدريج كيف كانت سيس مشدودة. وخارج الأبواب تراكمت الثلوج أعلى.

تزايدت أكوام الثلوج، ومازالت آن لم تظهر.

كان البحث جارياً في مكان ما أو آخر ـ لم تكن توجد هنا في الجروف أية علامة تدل عليها إلى الآن. ولم يكن الناس ربما يفكرون حول هذا كل يوم، أيضاً. تسربت الثلوج لتغطي على كل شيء خارج الأبواب وعلى عقول الناس.

لم يزر الخالة الوحيدة دائماً أي شخص في إجازة عيد الميلاد، لكن كان هناك من زارها. لم تجرؤ سيس. انتظرت الأنباء في خوف من أن تكون الخالة قد باعت منزلها وفي سبيلها إلى الرحيل. إذا فعلت هذا سوف تفقد حينئذ كل الآمال.

مازالت الخالة هناك.

شعرت سيس برغبة في أن تذهب إلى أمها وتسأل: «ألم تعودي تفكرين في آن الآن أيضاً؟

بدا كما لو أن كل شخص قد نسى آن. لم تسمعها أبداً تذكرها. هي لم تسأل أمها، لكنها شعرت أنها بمفردها التي تتحمل، وربما أصبح الحمل ثقيلاً عليها. تفكر في أغلب الأحوال في هذه الليلة عند قصر الجليد؛ بدا أن الرجال قد حددوا أن هذا هو المكان. سوف تذهب إلى هناك، حينما يصبح سطح الجليد صالحاً للتزلج قرب الربيع.

توجهت إلى أمها رغم ذلك، ووجهت إليها اتهاماً، ولكن بشكل أكثر عمومية: «لم يعد هناك أي تفكير في آن».

«من لا يفعل؟»

قالت سيس: «لا أحد يفعل!»، على الرغم من أنها لم تقصد أن تقول ذلك. لكنها أحست بالظلام يغمرها، ومن ثَمَّ قالت ذلك.

أجابت أمها بهدوء: «كيف عرفت يا فتاتي؟»

لم تقل سيس شيئاً.

«ثم إنه لا أحد يعرف آن. وهذا غير معقول، لكنه يجعل الأمر يبدو مختلفاً. فالناس لديها كثير من المشاغل لتفكر بها، أنت تعرفين». ونظرت الأم إلى سيس وأضافت: «»أنت الشخص الذي يمكنه أن يفكر في آن طوال الوقت».

كان الأمر، كما لو أن سيس قد تلقت هدية عظيمة.

٩

الهدية

الآن الوقت مساء ـ وما هذا؟

إنها الهدية.

أنا لا أفهم.

إنه وقت المساء وأنا تلقيت هدية عظيمة.

تلقيت شيئاً وأنا لا أعرف ما هو. أنا لا أفهم على الإطلاق. تنظر الهدية إلي، أينما ذهبت.

الهدية تقف وتنتظر.

إنه الصباح الآن، إنه جو صحو. الجروف ضخمة. طمست كل المسارات التي كانت، ملأت كل الأماكن المخفية. تعلقت النجوم العظيمة فوق الثلوج، ووقفت هديتي بالخارج، تنتظرني، أو تأتي وتجلس معي.

أشعر أنني مُنحت إياها، ومع ذلك...

الجو ليس عاصفاً أيضاً. إذا كانت العاصفة ستهب فسوف تدور

دوامات من ندف الثلوج. سوف تزمجر الرياح وتئن في التلال ـ لكن هديتي في الداخل، وهي لي وتنتظرني.

إنها بالداخل تماماً؛ تماماً في أعلى علين، مع النافذة الصغيرة المظلمة. أعتقد أن هديتي تقف هناك عند النافذة الآن، تنظر إلى الخارج ـ بينما هي تنتظرني لكي أراها.

إنها في كل مكان أذهب إليه، وأنا أعرف أنها هدية عظيمة. ما الذي سأفعله بها؟

من السخف أن أكون مرعوبة: لا يوجد أحد على جانبي الطريق. من المحتمل أكثر أن تأتي آن حينما تأتي الرياح المعتدلة بالذوبان.

ستأتي إذا ما تعين على الرياح المعتدلة أن تهب آلاف المرات! أنا أعرف أنها ستفعل، وأنا لن أفكر في أي شيء آخر. لقد تلقيت هدية عظيمة.

١٠
الطائر

سحب الطائر الجارح ذو المخالب الفولاذية الخط المائل بين قمتين في لمح البصر. لم يحط، لكنه صعد مرة أخرى، شاقاً طريقه إلى أعلى. لا راحة، لا هدف محدد لرحلته الأبدية.

امتد تحته مشهد الشتاء. كان بائساً أينما ذهب. شرحه ومزقه إرباً تحت ناظريه. تبدو عيناه أنها ترسل ضوءاً خفياً وشظايا زجاج من خلال الهواء المتجمد، ورأوا كل شيء.

هنا، كان هو السيد، وكان هذا هو فراغ الحياة لهذا السبب. كانت مخالبه المسمارية باردة مثل الجليد. نوحت الرياح المتجمدة بينهما عندما طار.

قطع الطائر الأراضي المقفرة إلى مزق وحلزونيات، كان الموت. وإذا كان شيء بعد كل هذا حياً فيما بين شجيرات وأشجار، فالعين سوف تومض بالضوء، تقطع الخط المائل، وتترك حتى حياة أقل من قبل.

هو لم ير شيئاً يشبه نفسه.

يحوم فوق القفار العظيمة يومياً، في طيران أبدي، بدون تعب أبداً.

هو لن يموت.

عاصفة ثلجية عنيفة اجتاحت القفار. ضربت الثلوج الأماكن المكشوفة. كانت الانجرافات سائبة، لم تكن هناك فواصل هدوء تحد من اجتياحها. الآن، تدور في دوامات هائلة. تبعها جو صاف بإشراقة باردة. عالية أعلى، في الهواء فوق قصر الجليد، راقبت العين الخفيضة للطائر هذه التغيرات في التضاريس الأرضية.

اليوم اجتاحت الثلوج القصر، بحيث أظهرت شكله الحقيقي. لاحظ الطائر التغير وأرسل إضاءة تنقض إلى أسفل: العيون المخترقة أولاً، وتبعها هو بنفسه. قام بانحناءة مفاجئة في منتصف شريطه، تأرجح من أجل التوقف، وقطعها قريباً إلى جوار الجدار الجليدي. ثم تسلق إلى الارتفاع الذي يصيب بالدوار، وتحول إلى بقعة سوداء صغيرة.

وفي اللحظة التالية، كان في طريقه ثانية في خط آخر كان مسحوباً أمام قصر الجليد عند النقطة نفسها على وجه التحديد. كان طائراً غير مقيد، لا يهدده أحد، متحرراً يفعل ما يشاء، أن يكون مسحوراً حينما يرغب في ذلك.

لم يستطع أن يغادر الموقع. ولا استطاع أن ينقض أو يستقر ـ يقطع الجدار الجليدي الأمامي مثل نفخة سوداء من الرياح. الدقيقة التالية بعيداً في الأفق، أو يدور في دوامة إلى أعلى؛ اللحظة التالية بعد الجدار الجليدي مرة أخرى عند النقطة نفسها. لم يعد طائراً بلا قيود بالكامل بمخالب فولاذية ورياح مصاحبة. سرعان ما صار مقيداً هنا، سجين حريته، غير قادر على الاستسلام. ما رآه أربكه.

سوف يتفتت بنفسه إلى ذرات على نحو مهلك، بقسوة مثل الزجاج، حيث يتشظون على الأقل. لكنهم مزقوا الهواء: لم يستطع تفادي أن يتمزق هو نفسه.

١١

المقعد الخالي

اتخذت المدرسة والشتاء مسارهما المعتاد. تقف سيس إلى جوار الجدار أثناء فترات الراحة. اعتاد الآخرون هذا منها. مرت الأسابيع، كل فرد مثل التالي له. تأجل البحث المكثف عن آن.

وقفت سيس إلى جوار الجدار. محتفظة بوعدها. اتُخذت فتاة أخرى قائداً للمجموعة.

دخلت، في هذا الصباح الشتوي، فتاة غريبة إلى الفصل. كانت من العمر نفسه مثل الآخرين، جاءت تلتحق بالفصل. انتقل أبواها إلى المنطقة منذ بضعة أيام مضت.

في الحال، توتر الجو. رأت سيس، مع بداية الدهشة، أنهم لم ينسوا. فالمقعد الخالي الذي تركته آن كان على الفور محط الاهتمام. وقفت البنت هناك، غريبة عن كل هذا، تنظر حولها. ذهب الآخرون إلى أماكنهم.

رأت البنت أن هناك مكاناً خالياً في منتصف الحجرة، أخذت خطوتين في اتجاهه. ثم توقفت، وسألتهم: «هل هذا المقعد خال؟»

نظروا كلهم إلى سيس: سيس التي أصبحت مؤخراً شخصاً مختلفاً؛ سيس التي اشتاقوا أن يستعيدوها مرة أخرى. الآن يمكن أن يكونوا قد أظهروا لها كيف كانوا مهتمين بها. شعرت سيس بتعاطفهم مثل موجة ما لبثت أن ارتدت ثانية عنها، وقد تلون خداها: فرحة عابرة، لم تتخيل أنها ممكنة.

قالت للبنت بعيدا عن هذه الأحاسيس: «لا».

نظرت البنت مندهشة.

قالت سيس: «إنه لا يخلو أبداً»، وانتهى المطاف بجلوس الفصل مباشرة على مقاعدهم في عرفان تام بشيء ما شعروا به لم يعرفوه: ذلك أنهم رغبوا فجأة أن يدافعوا عن مكان آن. فنظروا تجاه القادمة الجديدة بنفور، كما لو أنها ارتكبت فعلا يشينها.

لم يكن هناك مزيد من الأدراج، وبقيت البنت واقفة أمام الفصل حتى وصل المدرس. تزايد التوتر.

قال حينما انتهت المقدمة: «والآن دعينا نجد لك درجاً». نظر في الفصل للحظة قبل أن يأخذ القرار الواضح. «من الأفضل أن تأخذي الدرج هناك. إنه خالٍ الآن».

نظرت البنت على سيس.

وقفت سيس وتلعثمت: «إنه.. ليس.. خالياً».

قابل المدرس نظرتها وقال بهدوء: «ينبغي استخدام المقعد، سيس. أظن أن هذه هي أفضل طريقة».

«لا!»

كان المدرس في مأزق. نظر إلى الفصل وأحس من تعبيراتهم أنهم يوافقون سيس.

قالت سيس، وهي مازالت واقفة: «هناك أدراج في الممر غير مستخدمة».

«نعم، أنا أعرف أنه توجد».

تحول إلى القادمة الجديدة: «الدرج يخص البنت التي اختفت الخريف الماضي. أتوقع أنك قد قرأت عن هذا في الصحف».

«مرات كثيرة».

صرخت سيس: «وإذا لم يكن مكانها هناك، لن تعود أبداً!» ـ وفي هذه اللحظة لم يكن تأكيدها الوحشي يبدو غريباً. وسرت الرعشة فيهم جميعاً.

قال المدرس: «أظن أن هذا يذهب بنا بعيداً، سيس. لا ينبغي أن يقول أحد منا أشياء مثل تلك».

«لكن ألا يمكن أن يبقى الدرج كما هو؟»

«أحب الطريقة التي تشعرين بها، سيس، لكن لا يجب أن تذهبي بعيداً جداً. أليس من الأفضل أن يجلس عليه شخص ما في الوقت الحالي؟ سيكون هذا طبيعياً تماماً. لا شيء سيفسد من هذا، أليس كذلك؟»

«نعم سوف يفسد»، هكذا قالت سيس، غير قادرة على أن تستمر في التفكير أبعد من هذا في هذه اللحظة المضطربة. حملقت مصدومة في المدرس الذي لم يستطع أن يفهمها أيضاً.

مازالت البنت الجديدة واقفة في مقدمة الفصل، تود لو تهرب من هذا

الموقف برمته. فمن الواضح أنه كانت هناك مشاعر عدائية تجاهها، وهو الأمر الذي لم تكن مسؤولة عنه. جلس الفصل بأكمله خلف سيس بنوع من الرضا.

توصل المدرس إلى قرار.

«وهو كذلك، سأجلب درجاً آخر».

«نظرت سيس إليه بامتنان».

أضاف: «لا يستحق الأمر أن نفسد شيئاً مثل ذلك». وخرج إلى الممر.

في الحال، تغير موقفهم تجاه البنت.

لم تعد من الأعداء، أصبحت محل ترحاب.

لسبب ما، سألوا سيس التي كانت تحتل مكانتها مرة أخرى: «ستنضمين إلينا الآن، أليس كذلك يا سيس؟»

هزت رأسها.

لم تستطع أن تخبرهم عن الوعد، وأنها تلقت هدية عظيمة. كل ما كانت تنتظره في هذه اللحظة هو أن تتحول تجاه المدرس الذي جاء وهو يسحب الدرج.

١٢

حلم الجسور تغطيها الثلوج
عندما نقف تتساقط الثلوج أكثر كثافة.
يتحول كماك إلى اللون الأبيض.
يتحول كماي إلى اللون الأبيض.
تصل فيما بيننا مثل
جسور تغطيها الثلوج.

تتجمد الجسور التي تغطيها الثلوج.
هنا يعيش الدفء فيها. ذراعك دافئة تحت الثلج،
تميل بثقلها المحبب علي.

الثلوج تتساقط وتتساقط
فوق الجسور الصامتة.
جسور يجهلها الجميع.

١٣

مخلوقات سوداء على الثلوج

إن الحركة على قمم الأشجار هي التحذير الأول. لا توجد رياح، فقط هو تيار يتخلل القمم الخضراء لأشجار الصنوبر في بدايات المساء. فقط عندما يحل الليل سيصير جفاف شديد، تيار ليلي.

تساقطت الثلوج اليوم أيضاً. التمع كل شيء ناصعاً أبيض اللون، لكن السماء مثقلة، والسحب خفيضة وناعمة.

الآن، تأخذ الأمور مجراها. يخرج الناس يسعون، يستشعرون التبدل ويغيرون إلى إيقاع مختلف، كما لو أنهم يريدون أن يصلوا مقصدهم في توقيت جيد. يقولون لأنفسهم، كم هي معتدلة الأحوال. لكن ليست لديهم رغبة في الكلام. الآن، تبدأ.

اشتد التيار، يتدفق أقوى في الغابة. مدت أشجار الصنوبر الأبرية ألسنتها وغنت أغاني الليل غير المألوفة. كل لسان صغير جداً إلى درجة أنه غير مسموع؛ معاً يكون الصوت عميقاً جداً وقوياً، يمكنه أن يصل إلى التلال إن أراد. لكن الهواء معتدل، ويمتد الثلج رطباً ساكناً إلى أسفل، لم يعد ينتفض لهبات الريح.

يقول الناس الذين يمشون بالخارج متأخرين، كم هو معتدل الجو. هم يتركون الغابة ويخرجون إلى الأرض المفتوحة، هناك يقابلون التيار المعتدل نفسه. إنهم يتحركون ويرحبون به كما يفعلون مع مبعوث صديق. كان الجو بارداً لفترة طويلة كافية، وربما يتحسن سريعاً مرة ثانية. لكنهم في هذه الرياح، يفضلون في لحظة مثل هذه أن يكونوا فيها. فالريح الرطبة في ظلمة الشتاء يمكن أن تجعل الوجه مشعاً.

لا شيء قد انبعث، لكن شيئاً ما سوف يأتي؛ إنه مرتبط بالتحذير الخاص به في السحاب. في هذه الحالة، هم يعودون من مشيتهم إلى منزل النوم. لن يعرف أحد في الغد أنه لفترة قصيرة هذا المساء كانوا مشعين وتغيروا.

في الصباح، وحينما يشرق النور، تظل الرياح معتدلة جداً مع الأشجار تئن وتتمايل. وحينما يأتي ضوء النهار، ترى الثلوج الرطبة تتبعثر على هيئة مخلوقات سوداء دقيقة: على كل بوصة من الثلج، ولأميال في كل الاتجاهات. إنها حية، تزحف كما لو أنها تتحرك؛ ومؤخراً تحولت إلى سحابة، محملة على أجنحة الريح، على أجنحة الليل، قبس مما يجري بالكون، وستتحول إلى خط في اتجاه بعد التساقط التالي للثلوج.

١٤

الرؤية في مارس

وصل مارس مع سمائه الصافية بعد كل طقس منتصف الشتاء. الآن تأتي الصباحات مبكرة، ساطعة وصقيعية. استقرت الثلوج المجرفة لتتيح تزلجاً جيداً. كان هو أوان رحلات التزلج، والوقت المناسب لرحلة إلى قصر الجليد. فالآن نهاية مارس.

قرر الفصل القيام برحلة تزلج يوم سبت، فقط قبل أن يعودوا إلى بيوتهم. سوف يذهبون يوم الأحد صباحاً. ستكون الرحلة خاصة بشكل أكثر، لأن سيس ستذهب معهم.

قرروا أنهم قد كسبوا سيس. اقترب منها ثلاث.

«تعالي معنا في الرحلة، سيس. فقط هذه المرة».

كن الثلاث اللواتي تحبهن.

قالت: «أوه، لا».

فقط هؤلاء الثلاث. عرفت المجموعة من ترسله.

لم تكن لدى الثلاث نية للاستسلام عند أول رفض.

«تعالي معنا سيس. أنت ببساطة لا تستطيعين مقاطعتنا هكذا. نحن لم

نفعل أي شيء لك».

كان لدى سيس تيار قوي مضاد. اعتزمت أن تذهب إلى قصر الجليد بنفسها، ومع ذلك...

واحدة من الثلاث اللواتي عرفتهن هي الأقوى، أخذت خطوة للأمام وقالت بلطف: «سيس، نحن نريدك أن تأتي معنا».

كررت: «سيس»، ربما بنعومة أكثر، بما سلحها بخطورة الإغواء. وقفت الأخريان صامتتين، بما يعطي حتى تأثيراً أكبر إلى كلماتها.

كن قويات جداً. أزاحت الوعد جانباً قليلاً. أجابت سيس بنبرة الخطورة ذاتها كما اعتادت بطبعها، وهي نبرة الإجابات الفاتنة: «وهوكذلك، سوف آتي. لكن إذا حضرت سنذهب إلى قصر الجليد».

توهجن هن الثلاث: «الآن أنت عاقلة».

شعرت سيس بتأنيب الضمير بمجرد أن كانت بمفردها. لكن الأب والأم كانا سعيدين حينما سمعا، إذ يبدو أن الأذى يأتي من هذا المصدر.

في الصباح تجمعت المجموعة، وانطلقوا في مزيد من الجلبة. كان صباحاً صقيعياً صافياً، مع قليل من الثلوج على قمة الأعمدة الراسخة، كما ينبغي أن تكون الأمور في أحسن الأحوال. كان كل شخص مسروراً لأن الرحلة ستأخذهم إلى ما بعد الشلال، وستعم البهجة هناك من أن سيس معهم. كانت سيس واعية لصداقاتهم؛ فهي مبهجة في تحقيق انشراحها، كما تفعل زحافات التزلج على القشرة الجليدية مع الثلوج الجديدة على القمة.

كان كل شيء ـ ولم يكن ـ كما كان ينبغي أن يكون.

اتخذوا المسار الذي يمكن أن يوصلهم إلى النهر أسفل الشلال تماماً. هنا البرك الصامتة العظيمة، حيث تشكل الجليد، وحيث يمكنك أن تعبر فوقه إذا رغبت. وهدر الشلال في قلب الصمت؛ توجهوا إلى أعلى باتجاهه.

كلهم هنا ليشاهدوا قصر الجليد مرة أو مرتين أثناء الشتاء، لذلك لم تنبهر أنفاسهم بعد، لكنه نهض فوقهم جبارا غامضاً. كان يتلألأ خالياً من الثلوج الآن. وجدت شمس مارس طريقها إليه مبكراً اليوم، تراقصت فوق التشكيلات الجليدية.

تذكروا بضمير واعٍ ألا يقولوا شيئاً إلى سيس عن الموضوعات الخطرة. فهمت ذلك، وشعرت بأمان آني وبالإحراج. كانت مضطربة في السر عند رؤية هذا المكان ثانية. رسخ الرجال الصلة بين القصر ونفسها هذه الليلة؛ ربما تعين عليها أن تبقى في الخلف وتترك الآخرين هنا.

متعوا أعينهم بالقصر، اصغوا إلى هدير الشلال الذي سرعان ما سيصبح أقوى، وحينئذ يكونون قد استعدوا للذهاب.

وقفت سيس متجمدة. ما كانوا يخشونه قد حدث. خطر على بالهم أنه ربما أنهم لم يكسبوها بعد كل شيء. وقفوا ينتظرون منها أن تقول ذلك.

قالت: «انظروا، لا أظن أنني سأمضي أبعد من هذا. أنا أردت فقط بالفعل أن أصل إلى هنا».

سأل شخص ما: «لماذا؟» لكن واحدة من الثلاث اللواتي أغرينها بالقدوم قالت: «يجب أن تقرر سيس. إذا لم ترغب في أن تتقدم أبعد من ذلك، فليس هذا من شأننا».

«لا. سأعود من هنا»، هكذا قالت سيس بتعبيرها المعتاد، حينما تريد أن تمنع المعارضة.

قالوا بود: «نحن سنعود كذلك، إذن».

شعرت سيس بالإحراج: «لا، بالطبع لا. من فضلكم. ألا تستطيعون الذهاب كما هو مخطط؟ أنا أريد أن أبقى هنا بمفردي قليلاً».

خفضوا وجوههم. ألا نستطيع البقاء معك؟ مطلب مكتوب على وجوههم بوضوح. فالطريقة المهيبة التي تحدثت عن كونها هناك بمفردها ذكرتهم كيف كانت سيس طوال الشتاء. جعلتهم صامتين ومقيدين.

رأت سيس من تعبيراتهم أن اليوم قد فسد، لكن طالما كانت مهمومة فلا شيء يمكن فعله. تأخر الوقت جداً، فالوعد قد برز من داخلها مثل جدار.

«إذن أنت لا تريدين أن تبقي معنا أكثر من هذا اليوم؟»

قالت وهي شاردة: «لا، لا أفضل. أعرف أنكم لا تفهمون. إنه شيء أنا وعدت به».

حينما قالت مثل ذلك، تأكدوا بصورة غائمة أنه وعد التزمت به مع آن، ولا أحد يعرف إن كانت حية أو ميتة. في هذه الحالة فالأمر جد وخطير. وضعت حداً للنقاش كله.

«تعرفون أنني أستطيع أن أرجع إلى البيت بطريقتي. لدينا طرقنا لنسلكها».

ونظراً لأنها تكلمت بشكل طبيعي، فقد استردوا أنفاسهم وكانوا

قادرين على أن يردوا، وحتى يجادلوا.

قالوا: «نعم، بالطبع، لكن ليس الأمر كذلك».

تجرأ أحدهم وقال: «لقد كنت واقفة إلى جوار الجدار طوال الشتاء».

«وظننا أن كل شيء سيكون كالمعتاد».

«سأكون في البيت قبل أن تفعلوا أنتم»، هكذا قالت سيس التي لم تكن لديها رغبة في أن تناقش المسألة.

«نعم، لكننا ظننا أن كل شيء سيجري كالمعتاد، أنت تعرفين».

توسلت: «اذهبوا، ولا تتحدثوا هكذا».

أومأوا إليها، ثم بدأوا فرداً إثر آخر يتزلجون إلى أسفل المنحدر. تجمعوا ثانية على هضبة صغيرة، وقفوا هناك كما لو كانوا في مؤتمر، ثم تأرجحوا كمجموعة متماسكة بإحكام.

جرت سيس وهي تشعر بالخجل والتعاسة على زحافتيها العائمتين عائدة إلى الشلال وجدران الجليد. جذبها الهدير كما لو كان صوتاً يناديها.

ذكرى الرجال. لقد وقفوا هنا في منتهى الغرابة في تلك الليلة، كما لو أن شيئاً غير مُتوقع على وشك الحدوث. لأنهم اعتقدوا أنه ربما قد حدث هنا. لم يكن هناك مكان آخر للذهاب إليه بعد أن يصل المرء إلى استنفاد كل الطرق.

كررت التفكير: «أنا استنفدت كل السبل. هذا النوع من الأشياء التي يقولها الناس مرات كثيرة في اليوم الواحد بدون قصد.

جرت من صحبتهم وهي خجلى وتعيسة، وتوجهت مباشرة إلى الخرير، مباشرة تجاه قصر الجليد.

كان مثل حكاية مثيرة للقلق وغريبة من أي زاوية تنظر إليه. لامعاً ومتألقاً، خالياً من الثلوج، وله حلقة باردة تحيط به في منتصف هواء مارس المعتدل الذي توقف عنده. وتحرك النهر من تحت الجليد، مستجمعاً سرعته في طريقه إلى أسفل، آخذاً معه كل شيء يمكن أن يتمزق بعيداً.

وقفت سيس هناك لفترة طويلة. ودت لو تقف مثلما يفعل الرجال قبل أن يغادروا، فقط قبل بداية الأغنية الكئيبة. وقفوا في ضوء الفوانيس المتراقصة كما لو كانوا قد توقعوا أن تنبعث الطفلة أمام عيونهم بالفعل، وتخبرهم أنه لم يكن هناك شيء ليجدوه. لا تستطيع سيس أن تصدق شيئًا كهذا.

طائر عظيم قطع طريقه عبرها، جعلها تبدأ، لكن في هذا الوقت أصبح بالفعل خارج مرمى البصر.

لا شيء هنا للبحث عنه، لا شيء نجده. لكن مع ذلك... من أجل الرجال الكبار...

قررت أن تبقى. أخذت زحافتها ومشت إلى ثلوج راسخة عبر الجدار الجليدي. كان القصر الجليدي بمفرده ساحراً بما يكفي، الطريقة التي بنى بها نفسه بعيداً عن الرطوبة المتفجرة وقطراتها المتساقطة. الآن كل شيء محكم وقوي. قررت سيس أن تذهب إلى أعلى قمة، أن تتسلق إلى هناك، لتكون ببساطة في هذا المكان.

حينما وصلت إلى أعلى، نظرت حولها على الأشكال الجليدية المشوشة. برزت كلها خالية من الثلوج. وبحرص جعلت نفسها تنزلق

على المنحدر الجليدي، إلى أسفل أخاديد عميقة، كانت شبه خائفة من أنها ربما لا تكون قوية بما يكفي بعد كل شيء، فكرت منزعجة: ربما كان هذا، تماماً مثل الذي حدث!

الآن فقط هي تركت أصدقاءها خجلى. الآن هي خجلى لأنها خانت نوعاً ما شيئاً، حينما ذهبت معهم، ناسية وعدها، واستجابت لعيون الصداقة وشفاهها المغرية، ورحلة تزلج. لا، ليست الأمر رحلة التزلج، لكن هذا يعني صفقة كبرى عقدتها معهم، أصبح من الصعب بالتدريج أن تقاوم. فهي قد قاومت حتى تمزقت.

كانت مشاعر سيس فوارة تمور هناك فوق قبة الجليد الشاهقة المعقدة. تركت نفسها تنزلق عبر الأخاديد، إلى أسفل الشقوق، وأتت بطريقة ما إلى أسفل عند لوح جليدي على الحافة الفعلية المواجهة للشمس والشلال. كان هناك يغطى المكان. تسلقت ناحية فتحة شفافة، جليد صلب. سطعت الشمس فوقه والتمعت في مئات النماذج المختلفة.

صرخت، كما فعلت هي كذلك: لأن آن! كانت هناك. مباشرة أمامها، تنظر من خلال الجدار الجليدي.

في ومضة، فكرت أنها رأت آن، عميقاً في الجليد.

كانت شمس مارس القوية ساطعة فوقها مباشرة، بحيث كللتها ببريق متلألئ، كل أنواع الشرائط اللامعة والأشعات والورود غريبة الأشكال والورود الجليدية والحلي الجليدية، زُينت كما لو أنها من أجل احتفالية ما كبرى. استغرقت سيس في الأمر وهي عاجزة من رأسها إلى قدميها. للحظات لم تكن قادرة على أن تتحرك أو أن تصدر صوتاً يتجاوز صرختها

الأولى. تأكدت أنها كانت ترى رؤية. غالباً ما سمعت عن الناس الذين شاهدوا الرؤى؛ الآن أصبحت واحدة منهم. رأت رؤية، رأت آن، لفترة قصيرة استطاعت أن تتحمل أن تنظر إلى كل هذا.

بدا أن الرؤية لم تتلاش. ظلت ثابتة لا تتحرك في الجليد ـ لكنها كانت طاغية في هيمنتها على سيس لكي تنظر إليها. جاءت مثل انقضاضة على سيس.

كانت آن هائلة في تلك الرؤية من خلف جدران الجليد السائلة، أكبر كثيراً مما يفترض أن تكون. ظهر بالفعل وجهها فقط؛ كان الباقي منها غامضاً.

اخترقت الأشعة الحادة الصورة، قادمة من شقوق وزوايا غير مرئية. تألقت آن بصورة مبهرة جعلتها تستعصي على الإدراك. لم تستطع سيس أن تتحمل المنظر. استعادت استخدام أطرافها وزحفت من أعلى إلى الفتحات الأخرى، بدون أن تفكر في غير الاختفاء. حدقت طويلاً كما كانت؛ وهي ترتعش.

حينما عادت إلى إحساسها، كانت قد ابتعدت بمسافة كافية. فكرت: يجب أن تختفي الآن، أيضاً. الرؤى تختفي سريعاً.

لذلك لابد وأن هذا يعني أن آن ماتت.

بالطبع. آن ماتت.

تمزقت سيس إلى أجزاء عندما ضربها هذا الإدراك. هذا الشيء الذي لم ترغب في التفكير به، لم تذكره لنفسها، لكنه كان رعباً كامناً متوارياً في

الخلفية طوال الوقت ـ والذي أجمع عليه الناس وقالوه غالباً وبصراحة شديدة ـ الآن لم تكن هناك طريقة لتجنبه. كان عليها أن تصدق.

وعندما جلست تفكر، سمعت هسهسة قريبة خلفها، شعرت بنفخة مفاجئة من الريح، رأت مسحة في الهواء ـ حدث كل ذلك في الحال. حدث عن قرب شديد.

ارتعشت. كانت باردة ترقد على الجليد. بدأت تزحف في الفجوات الزلقة. كان طريق العودة أكثر صعوبة. وتحتها على الجليد، ظهرت هناك ألعاب غريبة للشقوق البراقة والتأثيرات الضوئية طوال الوقت. بدت أحياناً خطرة؛ انزلقت إلى الأماكن بدون أن تقصد. لكنها نجحت في أن تتسلق مرة أخرى.

حينما وصلت إلى القمة، بدا كل شيء حزيناً جداً وصعباً. وقفت تنظر، وبدأت تتساءل عما إذا كانت قد رأت أي شيء بالفعل.

بالطبع رأت.

وفكرت: في أحد أيام الربيع سوف ينسحق هذا الجبل الجليدي كله إلى فتات. سوف يتكسر وتأخذه مياه الفيضان، تفتته، وتجرفه في مسارها إلى أسفل، وتقذف حتى شظاياه الأصغر إلى الصخور، وتغسل كل هذا في البحيرة السفلى ـ وفي هذا تكون نهايته.

تخيلت سيس نفسها تقف هناك في هذا اليوم تراقب ما يحدث. تخيلت كذلك لثانية واحدة أنها كانت تقف على قصر الجليد في هذه اللحظة ـ لكنها رفضت الفكرة في الحال.

لا.

عثرت سيس على زحافتيها ثانية. بدلاً من أن تركبهما، جلست على الخشب الدافئ فوق المنحدر المشمس. هي لم تعد لامتلاك مشاعرها بالكامل. كانت متحيرة من رؤية آن متزينة بالجليد.

شيء واحد مؤكد: هي لن تقدر أبداً أن تخبر أي شخص عن ذلك. ولا أي شخص في العالم كله!

لماذا تعين أن ترى هذا؟ هل هي نسيت آن في الكثير من الأحيان؟

ولا كلمة للأب والأم؛ لا كلمة إلى خالتها، ولا لأي شخص.

هل هي رأتها؟ ربما هي غفت هناك في الشمس، وحلمت بها مثلاً؟ حينما نظرت حولها في ضوء الشمس، جالسة على الزحافتين، كان من السهل أن تصدق أنها تخيلت كل هذا.

لا، لم يكن الأمر بمثل هذه السهولة. كانت ترتعش كلها. هذا لا يحدث بعد حلم قصير.

نجحت في أن تركب زحافتيها بأصابع مرتعشة. نظرت إلى قصر الجليد، وفكرت: توقعت أنني أراه للمرة الأخيرة. لن أجرؤ على القدوم هنا مرة أخرى.

وأطلقت الزحافتين إلى الحركة.

وصلت سيس إلى البيت مجهدة تنضح بالعرق بعد ركضها. لاحظا مكتئبين أن كل شيء لم يكن على ما يرام.

«هل عدت بالفعل؟ هل تشعرين بالمرض؟»

«لا، لا شيء».

«لكننا نعرف مع ذلك أن الآخرين لن يعودوا قبل فترة طويلة».

«أنا عدت من عند الشلال».

«لكن لماذا؟»

ردت على أسئلتهم العصبية: «لا شيء، شعرت أنني لن أستطيع أن أُكمل الرحلة كلها، وهكذا ذهبت معهم بمقدار النهر».

«أنت لن تقدري؟»

«ومع هذا فأنا على ما يرام الآن. شعرت أنني لن أقدر لفترة».

لم يكن لتفسيرها رنين الصدق. لم تكن عادتها أن تستسلم أولاً.

قال أبوها: «نحن قلقون من أجل ذلك».

قالت الأم: «نعم كنا سعداء اليوم. كنا نعتقد أنك ستتجاوزين ذلك على الأقل، كنا نظن أن الأمور ستصبح كالمعتاد تماماً».

قالا، تجاوزي هذا.

قطعوا الطريق مباشرة واستخلصوا الحقيقة حول ما كان مُتوقعاً منها أن تفعله: تتجاوز هذا. كان من السهل أن تقول، لكن كيف يمكن أن يحدث ذلك طالما أن الرؤية كانت تتراقص أمام عينيها؟ تأكدت أنها كذبت لغرض صغير؛ لا يمكن أن يأخذا ذلك في الحسبان. لكن على أية حال، يمكنها أن تغلق فمها. سوف يكونان مسرورين عن طيب خاطر بطريقة ما في هذه اللحظة، لكنها لا تستطيع أن تكذب لتفعل ذلك ـ وما الشيء الآخر الذي يمكنها أن تفعله إذن؟ نظرت إلى أمها في صمت.

قالت الأم: «اذهبي وخذي حماماً واغتسلي من كل هذا العرق، ثم نستطيع أن نتحدث عن هذا فيما بعد».

«ما الذي سنتحدث عنه فيما بعد؟»

«عن رجوعك. الماء ساخن».

النصيحة المعتادة لأمها حينما ترجع إلى البيت بعد صراع معين أو غيره: إلى حوض الحمام. اذهبي وخذي حماماً.

رقدت في الماء الدافئ، لكنها رأت الوجه فيما بين الوردات الجليدية اللامعة. كان حاضراً أبداً. كان التعب والسعادة، بعد رحلة كهذه، ينتظران في الركن، لكنهما لم يقدرا على الاقتراب. هنا كانت جدران الجليد مع الوجه بداخلها أكبر أربع مرات أيضاً.

كان عليها أن تتحمل شيئاً هائلاً، يتعين أن يظل متوارياً وموغلاً في العمق خلف طيات أفكارها، تلك الأفكار التي لا تجرؤ أبداً أن تدعها تخرج من بين شفتيها.

قالت: سيس.

لا، لن تقول شيئاً. لكن الوجه كان خلف البخار الدافئ مباشرة.

لقد قالت سيس؟ الذعر يكمن منتظراً، بالرغم من الحمام. إنه يكمن على طول الطريق إلى البيت، الآن هو قد استولى عليها كانت هناك جدران ثلجية، عينان...

صرخت: «ماما!»

كانت الأم هناك في لمح البصر، كما لو كانت متوقعة. كانت سيس صغيرة، لكنها لم تنس أن تحافظ على الصمت إزاء ما حدث.

١٥

اختبار

ماذا عن الوعد الآن؟

ما هذا الشيء الذي يتعلق بي؟ رياح تتدافع برفق، تلاعب شعري بمودة. رياح رقيقة، كأنما لم تعهدها من قبل.

لن تعود آن أبداً لتقابلني، كما قال الوعد. ماذا عنها إذن، الآن هل ماتت آن؟

وقفت سيس بنفسها مرة أخرى في المدرسة في اليوم التالي، وعادت البيت بمفردها. كان عليها أن تغلق على نفسها حينما تذهب إلى هناك. فالرؤية في قصر الجليد قوية جداً إلى حد أنه تعين عليها أن تمتنع عن الحديث عنها طوال الوقت وأينما كانت. إذا تركت الأمر سائباً أمام الآخرين، سوف يسيطر عليها الذعر. كانت مجبرة على أن تبقى في فراشها وتقرأ، أو تخرج بمفردها تتجول. كان من الخطر أن تلتقي عيناها بعيني والديها: ربما تخترقان السد؛ ربما تفيضان من فوقه. كانا يتوقعان شيئاً، هي تعرف جيداً. لكنها لم تستطع الاقتراب منهما. يستطيعان التعليق بهدوء: «نحن لا نراك إلا نادراً، سيس».

ترد: «لا شيء».

لا يزيدون في القول، على الرغم من أنهما قد حاصراها. يشعرها ذلك بعدم الأمان.

لماذا أنا أرى آن؟

حتى لا أنساها؟

بالطبع.

يبدو لها أن آن نُسيت. لا أحد يتحدث عنها؛ لم تسمع أبداً اسمها يُذكر. ليس في البيت ولا في المدرسة. فكرت سيس غاضبة، كما لو أن سيس لم تُوجد أبداً.

أنا الشخص الوحيد الذي يتذكرها. وأتوقع أن خالتها تتذكرها. فهي لم تبع بيتها وترحل.

من يفكر في آن غيرنا؟

كان السؤال ملحاً. كان مهماً إلى درجة أنه تعين على سيس أن تختبره. اختبرته صباح يوم ما في الفصل، فقط قبل أحد الدروس. كان كل فرد هناك فيما عدا المدرس. لم ترد أن يشارك في ذلك. كان عليها أن تعد نفسها لإجراء الاختبار.

اتخذت موقفها، استجمعت شجاعتها، وتحدثت في الفصل بحيث يستطيع كل فرد أن يسمع، جعلته يبدو تقريباً مثل إعلان: «آن».

فقط الاسم مجرداً. استطاعت أن تفعل ذلك بطريقة أخرى. ربما سيفهمون.

لم يحدث شيء مباشرة، إذا كان ذلك ما توقعته. تحولت وجوههم باتجاهها، بالطبع، وتوقفت الثرثرة، لكن ساد الصمت تقريباً بعد ذلك.

ربما كان هناك انتظار لمزيد من المفاجآت. حينما لم يحدث شيء، بدأوا يتبادلون النظرات. لكن لم يصدر أحد صوتاً. ظنت سيس أنهم قد صدموا. نظرت حولها بحذر.

هل كان هناك جدار من العداء؟ لا لم يكن هناك جدار.

كانوا مرتبكين.

كانت هي أيضاً مرتبكة. لم تفكر أبداً في ذلك.

أخيراً رد شخص ما. لم يكن هذا الشخص إحدى البنات، وبالتالي فهي قريبة منها، لكنه الولد الذي اقترب منها ليساندها. لاحظت أنه يأخذ المقدمة في مناسبات مختلفة حديثاً. كان هو الذي أجاب بحدة: «نحن لم ننسها».

مثلما يفتتح شيئاً ما. لحقت به إحدى البنات: «لا، بالطبع نحن لم ننسها... إذا كان هذا ما تفكرين به».

كانت سيس تغالب خجلها. أدركت أنها كانت على المسار الخاطئ في عزلتها. تلعثمت: «لا، كان فقط...»

غاصت، لم يزد أحد على حساب كل ما استطاعت أن تخبرهم به، وسبب ذلك لهم الحزن.

الجزء الثالث

عازفو آلات النفخ

١

الخالة

أنا لست وحيدة في التذكر، لكن.. هذا شيء ما لا يتحدثون عنه. لماذا لا يتحدثون عنه؟

إنه لا يشبههم.

تبدأ سيس بين حين وآخر في التفكير: الآن بيع البيت، بيت الخالة. الآن سوف ترحل الخالة.

ذهبت إليه في اليوم التالي في طريقها إلى البيت. رأت أنه مازال مسكوناً، ووجدت حاجياتها بالخارج.

طالما أن البيت لم يُبع، فالخالة تصدق هذا.

حدث وأن عبرت سيس في أحد الأيام بالمنزل بهذه الطريقة. لقد اقتربت جداً وشاهدتها الخالة. فأتت إلى الباب وأشارت إليها.

«تعالي سيس!»

حينما أتت مترددة ومتوترة، قالت الخالة: «أعتقد أنني وعدتك أن أخبرك إذا كنت سوف أبيع المنزل وأرحل».

«نعم، هل فعلت؟»

أومأت الخالة.

إذن فقد بيع. فماذا اكتشفت؟ في اللحظة نفسها التي كنت فيها في قصر الجليد؟ هراء. رغبت سيس أن تقول المزيد، وقد فعلت الخالة. قالت دون مراوغة: «أنا متأكدة الآن أنه لا يوجد شيء يستلزم انتظاره».

«هل تعرفين هذا؟»

«أنا لا أعرف، ومع ذلك، فأنا أعرف أنه الشيء نفسه. لذا فقد بعت البيت. وسأرحل بعيداً».

بغرابة كافية، شعرت سيس بالأمان. فالخالة لن تقول: الآن أنا ذاهبة، وتستطيعين أن تخبريني بالتأكيد عن كل شيء لم ترغبي في أن تتحدثي عنه من قبل؟ هي لن تقول هذا.

«هل سترحلين غداً إذن؟»

نظرت إليها الخالة بحدة: «لماذا تقولين هذا؟ هل سمعت بالفعل؟»

«لا. لكن في كل يوم أفكر، أقول إنها سترحل غداً».

«حسنا، تخمينك صحيح في النهاية، فأنا سوف أرحل غداً. وهذا هو السبب في أنني ناديت عليك؛ فمن حسن الحظ أنني رأيتك وأنت عابرة. فإذا لم أكن قد رأيتك، كنت سأبحث عنك هذه الليلة».

لم تقل سيس شيئاً. من الغريب أن تسمع الخالة تخبرها أنها سوف ترحل. إنه أمر حزين للغاية. صمتت الخالة لفترة أيضاً، لكنها تذكرت حينئذ شيئاً ما.

«بالإضافة إلى أنني ناديت عليك لأنني أريد الشيء نفسه أن أتمشى

معك هذا المساء. آخر أمسية لي. أردت أن أسألك إذا ما كنت ستأتين معي؟»

رعشة من الفرحة.

«نعم! إلى أين تريدين أن تذهبي؟»

«»ليس إلى أي مكان. فقط أريد الحديث معك قليلاً».

«لكن يجب أن أذهب إلى البيت أولاً. فأنا أتيت مباشرة من المدرسة».

«أوه، هناك الكثير من الوقت. لن نخرج حتى يحل الظلام تماماً. فالغسق لم يعد يأتي مبكراً جداً».

«سأمضي في الحال»

قالت الخالة: «يجب أن تقولي إننا سنتأخر، لكن لست بحاجة لأن تكوني عصبية».

شعرت سيس بالمهابة في طريقها إلى البيت. فهي والخالة ستتمشيان. لن تكون تمشية عادية.

قالت سيس في البيت حينما كانت مستعدة لأن تذهب: «سوف نتأخر. قالت إنه يتعين أن أخبركما».

أجابا بابتهاج: «نعم، وهو كذلك».

عرفت سيس على وجه التحديد لماذا كانا متفقين. فأي شيء يمكن أن تجده وتفعله، مقبول في هذا الوقت، حتى إن لم يكن يزيد عن تمشية

مسائية مع شخص آخر. فهي التي قادتهم إلى هذا الطريق.

فكرت في هذا طوال طريق العودة إلى الخالة.

لم تكن الخالة مستعدة.

قالت: «لا داعي للتسرع، لن نذهب قبل حلول الظلام. نحن نريد أن نكون في شأننا؛ فهذا ليس من شأن أي أحد آخر».

كانت سيس سعيدة ومنفعلة، واختلط كل شيء مع الحزن على الرحيل. كانت الخالة مشغولة في حزم الأشياء وترتيبها. ساعدتها سيس على قدر استطاعتها، لكن معظم الأشياء قد انتهت منها بالفعل. كانت غرفة الجلوس جرداء عارية، خالية من المقاعد، وأكبر كثيراً مما كانت من قبل.

لم يكن باب غرفة النوم مفتوحاً. كان هذا أمراً طيباً.

«أظن أنك ترغبين في أن تلقي نظرة بالداخل؟»

«لا». لا عليك. لم يعد فيها مقدار خردلة».

«أنا آسفة، أظن أنني سأفعل بعد كل شيء».

نظرت بالداخل. لم تكن هناك أية بقايا من شيء. فهذه الأشياء غريبة، وتشعرك بعدم الأمان.

الآن يمكنهما الذهاب؛ كان الظلام يحل.

واضح أن الربيع على وشك أن يصل. تشعر بذلك عندما تخطو إلى خارج البيت: هواء رقيق، وثلوج تنثر روائح المكان. لكن الثلوج مازالت

ممتدة ومتماسكة في كل مكان. السماء معلقة على سحب كثيفة منخفضة، ومساء معتدل أسود. تستطيع أن تمشي ببطء كما تشاء في هذا النوع من الطقس. كان كما ينبغي أن يكون، ومشيتا على مهل لفترة ممتدة، بدون أن تتبادلا كلمة واحدة.

كان المشهد حولهما غامضاً. وقفت البيوت غائمة على انفراد. أضيئت الأنوار. لم تصدر سيس صوتاً. تأخذها الخالة في تمشية الوداع. غداً، لن تكون هنا.

ربما ستقول شيئاً باختصار.

إن المساء الشتوي الربيعي حَوَّل المشهد إلى نمط ضبابي متبدل، عبر أمام عينيهما بالحركة البطيئة، مر إلى جوارهما جدار يخطو ببطء. جعل وميض الثلوج المشي سهلاً. وعبر الشبكة المتراقصة لعيونهما، بدت الأشجار الطويلة المنحدرة تمد أذرعها في تحذير؛ وتتحرك كتل صخرية منحدرة حالكة السواد نحو جبهتيهما مثل قبضات مشدودة.

كان هذا وداع الخالة. لم تكن تزور أي أحد؛ لم يكن لديها الكثير لتفعله مع الأناس الآخرين بينما كانت تعيش هنا. كانت غريبة ودودة، لم تزعج أحداً، وفضلت أن تدير شؤونها بنفسها. لكن حينما أصابها سوء الطالع وفُقدت الطفلة، تطوع كل فرد للمساعدة. الآن تراقب سيس بينما تودع الخالة بطريقتها.

لذلك، سارتا في صمت لوقت طويل. لكنه لم يكن وداعاً فقط. كانت سيس تنتظر، وجاءت اللحظة. وقفت الخالة على الطريق وقالت بصوت

حائر ونغمة يغلب عليها الارتباك: «سيس، لم أطلب منك أن تأتي لمجرد الصحبة».

أجابت سيس بهدوء: «لم أظن أنك فعلت ذلك».

«ما الذي سيكون حينئذ؟ كيف أتمنى أن ينتهي. لا، لا أريد في الواقع، لكن يتبقى...»

بدأت الخالة تسير عبر الطريق المعبد بالثلوج في الهواء البارد. كان صوتها بارداً أيضاً حينما تكلمت ثانية.

قالت الخالة: «ربما أعيش بمفردي، لكن الناس أخبروني بشيء واحد آخر. فأنا أقابلهم هنا وهناك. أعرف أنه قد مر بك شتاء قاسٍ وصعب».

توقفت، كما لو أنها تعطي سيس وقتاً.

فكرت سيس، أنا لست مستعدة لأن أكون في موقف دفاعي.

«سمعت أنك انقطعت عن أصدقائك في المدرسة، وحتى عن والديك إلى حد معين».

قالت سيس سريعاً: «لقد أعطيت وعداً».

«نعم، أدركت أنه لابد وأن هناك شيئاً ما من هذا النوع، وأعتقد أنني ممتنة لك، لنقل من أجل اقترابك. لا أريد منك أن تخبريني المزيد عنها. لكن لا ينبغي أن تعدي كثيراً جداً بحيث تدمرين نفسك، وخصوصاً أنه لم يعد هناك مزيد من موضوع الوعد».

لم تقل سيس شيئاً، وحاولت أن تفهم ما الذي ترمي إليه الخالة. لم تعد تنصت بعد بدون رغبتها.

قالت الخالة: «كنت مريضة».

«لقد استمروا حتى أنني لم أستطع الاستمرار في الوقوف! يبحثون عن شيء لم أستطع أن أخبرهم عنه. المزيد والمزيد مرة أخرى...»

«نعم، نعم، أنا أعرف. يجب أن تتذكري أن هذا كان في البداية الفعلية حينما كان يتعين تجريب كل شيء من أجل إيجاد أثر ما. لقد كنت في هذه المسارات الخانقة لدرجة أنني حاولت بالمثل، كما تعرفين. كنا ندرك جميعاً أنه كان أمراً قاسياً جداً بالنسبة لك».

«إنهم توقفوا الآن».

«أجل، أوقفوا هذا في النهاية، حينما بدأت الأمور تجري في المسار الخطأ».

حدقت سيس في الفكرة الغامضة للخالة: «أوقفوا هذا؟»

«نعم، يمكن أن تقولي أنهم توقفوا. لا أظن أنك سمعت أي فرد يذكر الكارثة منذ وقت طويل الآن. أقصد بالنسبة لك. إن الطبيب الذي أتي ليراك منع هذا. لقد منعوا هذا في المدرسة أيضاً».

كان هذا مفاجأة كاملة لسيس. نجحت بمشقة أن تقول: «ماذا؟»

فكرت أنه من الأفضل أنهما لم تستطيعا أن ترى وجه كل منهما الأخرى بوضوح. ثم لم تستطيعا أن تتحدثا عن ذلك. اختارت الخالة الوقت الصحيح لتخبرها.

أخذوا نظرة جادة على الأمر، كما تعرفين. كنت مكتئبة جداً. من الأفضل لك أن أخبرك، نظراً لأنني راحلة. أعتقد أنه ينبغي أن تعرفي».

مازالت سيس تقف صامتة. هنا يكمن تفسير الكثير مما أدهشها. أضافت الخالة: «يمكن إخبارك بذلك الآن، الآن انتهى كل شيء. الآن

نحن لم نعد ننتظر».

تساءلت سيس: «هل انتهى؟ ما الذي انتهى؟»

«نعم، ظننت أنه من الأفضل أن نتحدث عن هذا أيضاً».

بدأ قلب سيس ينتفض، لكن الخالة بدأت تتحدث مرة أخرى عن الشيء نفسه.

«لا يجب أن تعتقدي أن الناس قد نسوا من كانوا يبحثون عنها. هم لم ينسوا، أنا أعرف ذلك. لقد ساعدوني كثيرا إلى حد أنني أرحل الآن ولا أعرف ما الذي كان يجب أن أفعله إزاء ذلك. كان ينبغي أن آخذ جولة لشكر الجميع. لكنني لا أستطيع، فأنا لم أُصنع لهذا».

«لا...»

«وهذا هو السبب الذي من أجله أمشي هنا في الظلام هذا المساء. فأنا تعيسة جداً. أريد أن أتمشى هنا، ومع ذلك لا أجرؤ أن أُظهر وجهي».

وبدت بالفعل تعيسة، تقف هناك في ليل أبريل المظلم؛ لكنها لم تبد مثل هذا في الواقع.

«دعينا نمشي سيس. أريد أن أكمل الجولة قبل أن أذهب إلى النوم».

يؤدي الطريق مرة أخرى إلى ما بين البيوت والناس. النوافذ مازالت مضيئة هنا وهناك. فكرت سيس كم هو جميل أن تكون بالخارج تمشي مع الخالة. سألت نفسها لماذا لم تتمش من قبل هكذا مع أمها؟ لم تجد إجابة. على الرغم من أنها متعلقة بها كثيراً. لم تستطع التفكير في أي طريقة، أرادت أن تكون مختلفة، لكنها تخجل من والدها أيضاً ـ على الرغم من أنها كانت له صديقة جيدة على وجه الخصوص. ما هذا الموجود في

العالم، ويسبب كل هذه التعاسات الصغيرة للخالة، وحاجتها إلى شخص ما يمشي معها طوال الليل إذا استلزم الأمر؟

نعم، سيس يمكنك أن تسأليها.

«يجب أن تخبريني ما الذي انتهى، بالطريقة التي قلتيها».

«انتهى بالنسبة لك».

«أوه، لا».

«أظن كذلك، أنت تعرفين. لا يوجد لنا ما ننتظره. هي قد رحلت ولم تعد على قيد الحياة».

الأمر الطيب أن الظلام كان سائداً. همسة من سيس: «هل اكتشفت كيف؟»

«ليس ما تسمينه اكتشافاً، ومع ذلك، فأنا أعرف هذا الشيء تماماً». عرفت سيس أنها كانت لحظة هامة. تنحنحت الخالة واستجمعت قوتها لتقول شيئاً ما حاسماً.

«أنصتي سيس، ما أريد أن أسألك عنه قبل أن أرحل هو أنك ينبغي أن تعودي إلى كل ما اعتدت عليه. فإن قلت إنك أعطيت وعداً، فإن الوعد لا يمكن أن يفضي إلى شيء حينما لا يكون الطرف الآخر موجوداً. لا يمكنك أن تربطي نفسك بذكراها وتغلقي على نفسك دون ما هو طبيعي بالنسبة لك. ستكونين فقط مصدر إزعاج لنفسك وللآخرين، ولن يشكرك أحد على هذا، بعيداً عن ذلك. فأنت تسببين التعاسة لوالديك بالفعل. هل تنصتين إلى حديثي هذا؟».

«نعم، نعم!»

«إذن أنصتي: هي لن تعود، وأنت في حل من وعدك».

طعنة جديدة.

«أتحلل من وعدي؟»

«نعم».

«هل تستطيعين فعل هذا؟»

«نعم، أعتقد أنني أستطيع، هنا والآن».

لقد اكتسب صوت الخالة نبرة السلطة. لم تعرف سيس بماذا تفكر. انهيار عملية البحث، والشك في الوقت نفسه.

قبضت الخالة على ذراعها: «هل نقول إن الأمر كذلك؟ نعقد اتفاقاً؟»

قالت سيس: «كيف أعرف أن هذا حقيقي؟»

سألت الخالة متألمة: «وإذا كان حقيقيا؟»

«نعم، سواء تستطيعين فعل هذا لي أم لا. لأنها كانت أنا...»

هل ذهبت بعيداً، سيس؟ لكن ما قلته فقط... ألا ينبغي أن تفكري بالطريقة نفسها، الآن ومرة ثانية هذا الربيع؟»

«نعم، ينبغي، لكن...»

«سيكون الأمر على ما يرام. لذلك بإمكاني أن أكون أسعد قليلاً حول مسألة الرحيل».

تعجبت سيس ممتنة: «أنت غريبة».

كان هذا شيئاً لم تجرؤ على الاعتراف به. هل تحررت منه؟ هل فعلت؟ هل كان الأمر مفرحاً أم حزيناً أن تتحرر منه؟ كان كل ما استطاعت

أن تقوله، أنت غريبة.

قالت الخالة: «ينبغي أن تتحركي. لا يجب أن تتأخري كثيراً عن العودة إلى البيت، أيضاً».

«لا، لكن دعينا نذهب إلى أي مكان تريدين».

إلى جانبهم، تنحدر نماذج من الأشجار والبيوت والصخور المتزايدة في فوضويتها؛ وأحياناً برك من السخام الأسود. حينما انحدرت الأخيرة إلى المشهد، توجهت مباشرة إلى القلب، ما هذا! في هذه اللحظة غير المحتملة؛ لكنه كان التخيل كل مرة، وثب قلبها مرة أخرى مترعاً بالدماء المتدفقة. إنه نحن الذين نمشي؛ النموذج لا يتحرك.

صوت الخالة: «أقول مرة أخرى، يجب أن تشعري أنك متحررة. ليس صحيحاً بالنسبة لك أن تمضي كما أنت. إنها ليست مثلك. أنتما شخصان مختلفان».

لا تجيبي. ليس المقصود أن تجيبي. لكنها مثل بريق النجوم في بئر. ولا تفسير.

انتهيتا من تمشيتهما. كانت ليلة سوداء. قامت الخالة بجولات. وصلتا إلى منزل سيس أولاً. مصباح وحيد مضيء، ينتظرها: لم يكن هناك صوت.

بدأت الخالة: «حسناً، ها نحن هنا، وأود أن أقول...»، لكن سيس قالت سريعاً: «لا. سأصل معك إلى بيتك».

«أوه، لا تنزعجي».

«أنا لست خائفة من الظلام».

«أنا متأكدة أنك لست خائفة، لكن...»

«اسمحي لي؟»

«نعم، بالطبع».

بدأتا مرة أخرى.

تباعد منزل النوم والمصباح المنتظر. كان الطريق مهجوراً. بدأتا تشعران بالتعب.

«ليس الجو بارداً».

قالت الخالة: «لا شيء».

غامرت سيس بالسؤال: «ماذا ستفعلين في المكان الذي أنت ذاهبة لتعيشي به؟»

إنها لم تعرف أين يقع؛ فهي لم تذكره. اعتادت الخالة أن تنظر على كل شيء بطريقتها.

قالت: «أوه، سأشغل نفسي بشيء ما أو آخر. سأجد شيئاً ما. فأنا بعت البيت أيضاً، أنت تعرفين. لا تقلقي بشأني للحظة، سيس».

«لا».

«أنا مخلوق عديم القيمة»، هكذا قالت الخالة باختصار فيما بعد عندما كانتا تقتربان من البيت قرب نهاية المساء. بدأت مرة ثانية: «عديمة القيمة. الناس هنا فعلوا كل شيء من أجلي خلال تلك المصيبة، وأنا أذهب بهذه

الطريقة في الوقت الذي ينبغي فيه أن أرحل بشكل صحيح».

سألت حينما لم ترد سيس: «ماذا تظنين سيس؟»

«لا أعرف ماذا أقول».

«وهكذا أنا أفكر في أنه طالما أنت كنت معي هذا المساء، سوف يعرفون أنني تجولت، وأنني فعلت ذلك كطريقة لشكرهم. يتبقى أيضاً أنني أعول على إخبارهم بشأن ذلك، وأكون شاكرة إن فعلت، على الرغم من أنني أعرف أن مخلوقة عديمة القيمة هي فقط التي سوف تفكر في أشياء مثل هذه».

الآن ربما يتعين عليهما أن تقولا وداعاً.

الآن كانتا تسبحان متوحدتين تقريباً مع الظلام، لا تعكسان ضوءاً. لا يمكن سماع وقع خطواتهما. لكن يمكن سماع أنفاسهما، وربما القلب. امتزجتا تقريباً مع التحركات الأخرى الليلية غير المسموعة، مثل ذبذبة ضعيفة في أسلاك طويلة.

خائفة من الظلام؟ لا. ظهر عازفو آلات النفخ اللامعة، وكانوا يمشون على جانبي الطريق.

٢

مثل قطرة الماء وغصين الشجرة

من تحرر؟

لا أحد، ومع ذلك...

لا قفزة وحشية على الآخرين: ها أنا هنا! لا أحد تحرر، ومع ذلك فكأن عازفي آلات النفخ قد وصلوا.

مثل قطرة ماء وغصين في وضح النهار. فالغصين العاري المبلل، والثلوج المفاجئة التي تسقط أدناه، وماء صافٍ يسيل على الثلوج. أخذ ركام الثلوج يقطر، بداخله شريط أسود، شريط من مخلوقات سوداء يتموج مع طبقة من الثلوج فوق التل والوادي ويتبدد. ذاكرة غريبة: تسرع المخلوقات السوداء إلى الظلام، تجمع إثر تجمع في ليلة معتدلة فيما النوبات الباردة. الآن كل شيء يتبدد، مثل المياه الصفراء، أو يقف متجمداً في البرك الصفراء.

«هاي، سيس!»

صيحة من بعيد. نداء من العالم الآخر.

أنت تشعر مثل قطرة الماء والغصين. أنت غير متأكد. أنت أي شيء لكنك ميت. انقضي الوعد، لكنك لم تتحرر من أجل ذلك. هناك ثقل لا

يتزحزح رغم ذلك. أنت لا تعرف إلا القليل.

تحدث الأشياء بسرعة اللهب.

الأم، انتعشت: «سيس، هل تستطيعين أن تؤدي لي مهمة بعد المدرسة اليوم؟»

«نعم بالطبع».

لماذا اختلف الأمر الآن؟ ماذا رأوا؟ ربما أنا وحدي من أفكر هكذا.

مشت عبر الطريق في مهمتها. كان كل شيء يتعلق بها مكشوفاً. الرياح المحملة بالرذاذ والأشجار المتمايلة. كيف هو الحال في المدرسة اليوم؟ لا أعرف. أنا لا أهتم كثيراً بأي شيء. قد لا تسير الأمور بشكل طيب بالنسبة لهم. كان الوعد رباطاً وثيقاً، قاسياً، لكنني كنت أعرف أين أقف. إذا كانت قد رحلت، فأنا لا أعرف أين أنا. حينما تكون هناك رائحة في شفق الربيع، فإنني أعرف على الأقل.

كان شخص ما قادماً، وصل إلى الطريق من المنحدر الشمالي في الرياح والمطر. صبي يافع من حي مجاور؛ هي تعرفه. يتصبب منه العرق؛ يرتدي ملابس للمطر والدفء. شيء ما بداخلها لطف شعورها، شيء ما عقد نفسها ضد الطريقة المتهورة التي تحملها على ظهرها.

قال: «إنه أنت، سيس؟»، ورأت أنه كان مشرقاً. «ينبغي أن أقول إنني سعيد أن جئت من الطريق الرئيس أخيراً. كنت أجتاز هذا المنحدر، والجروف عميقة هناك تصل إلى الركبة. تشبه أن تمشي في رمال مبتلة تغوصين فيها إلى ركبتيك».

ابتسمت له سيس.

«هل ذهبت بعيداً؟»

قال: «سأقول لك! لقد خلا كل مكان آخر من الثلوج. كنت عند النهر».

«هل ذهبت مباشرة إلى النهر؟»

«نعم، الجليد يتكسر الآن».

عرفت بالتأكيد: مازال شخص ما يبحث. أحبته من أعلى رأسه حتى أخمص قدميه. سألت: «أمازالت الكتلة الجليدية الضخمة قائمة؟»

«نعم»، هكذا أجاب الولد باقتضاب، كما لو أنه توقف سريعاً في منتصف شيء ما، ولم يرغب في الاستمرار.

استمرت سيس.

«هل بدت بالطريقة نفسها؟»

«نعم، بالطريقة نفسها».

«لم تعد قائمة هناك، أليس كذلك؟»

«أوه لا، النهر عال جداً، وأتوقع أنه ربما يرتفع أكثر».

كانت مفعمة بالتأثر تجاهه، من أجل إرهاق الطريق. ينبغي أن تبين ذلك. وخزة من الفضول.

«تستطيعين أن تسمعي الهدير من بعيد»، هكذا فسر بدون مبرر، مسقطاً اللهجة الجافة التي استعملها، بمجرد أن بدأت سيس توجه له أسئلة: «وتستطيعين أن تري الجليد من مسافات بعيدة».

قالت: «هل تستطيع؟»

«نعم، من تل قريب تماماً من هنا، إذا أردت أن تريه، أيضاً».

«لا، لا أريد».

كانت هناك وقفة. كانا مدركين أنهما يتكلمان عن البنت المفقودة.

قال فجأة في نبرة صوت ودودة: «أفهم يا سيس».

فكرت: وماذا الآن؟

بدأ يقول: «فكرت أن أقول لك شيئاً ما، عندما حدث وأن جريت نحوك»، هكذا بدأ، لكنه كان متردداً إزاء الاستمرار، وخرجت العبارة غير قاطعة: «أردت أن أقول إنه لا يوجد شيء أكثر من هذا يمكن فعله بشأنها، سيس».

لذلك عمد إلى قولها. كان كلاماً واضحاً. لم ترد سيس.

قال: «يجب أن تفكري في هذا».

نعم، كان كلاماً واضحاً، صحيحاً بما فيه الكفاية. صحيح من حيث التوتر والإرهاق ـ لكن الشيء الغريب هو أن التأثير مختلف عما قبل، لم يكن هناك تحد أو ثورة. على العكس، كان جيداً أن تتحمله.

همست تقريباً: «لا أفهم كيف يمكنك أن تعرف أيضاً».

قال: «ينبغي أن تعذريني».

أضاف: «أنت لك غمازتان».

مالت بوجهها إلى أعلى فابتل بالرذاذ.

تساقطت قطرات المطر على وجنتيها، وهامت على غمازتي وجنتيها. كم كانت سعيدة.

قال: «إلى اللقاء، يتعين عليَّ العودة إلى البيت لتغيير ملابسي».

قالت سيس: «إلى اللقاء».

كان ذاهباً إلى الاتجاه العكسي، لذلك لم تكن لتصاحبه. كانت لديه دائرته البعيدة شيئاً ما عن دائرتها. كان زميلًا كبيرًا، شابًا تقريباً.

بمجرد أن قال هذا عن غمازتيها. استطاع أن يصنع الفرق؟

أوه نعم. هي تعرف أن هذا حدث بالفعل.

ومن ثَمَّ هناك شخص، مازال يمشي بمفرده على النهر، يبحث، يعود إلى بيته متعباً. يمشي هناك بمفرده بعد أن رحلت الخالة وبعد كل شيء. بحث يكتسب له معنى عندي تقريباً.

كان وقت الثلوج ووقت الموت وغرف النوم المغلقة، وصلت فجأة إلى الجانب الآخر منه، عيناها ترمشان بفرحة غامضة لأن ولداً قد قال: «أنت لك غمازتان».

عازفو آلات النفخ يمشون على جانبي الطريق. أنت تسيرين بأسرع ما تستطيعين، وترغبين في الوقت نفسه ألا ينتهي الطريق.

الطريق لم يصل إلى النهاية، ووصلت سريعاً جداً: كان من الواضح أن شيئاً ما قد حدث.

سألت أمها» «الجو لطيف بالخارج؟»

«لطيف؟ هناك رياح وأمطار».

«يمكن أن يكون لطيفاً مع هذا، أليس كذلك؟»

نظرت سيس إلى أمها بمكر. هي لم تسألها أبداً أكثر مما ينبغي.
ولا هي فعلت كذلك.

٣

القصر يغلق

تنبعث ومضات الضوء الثلجي من كل الشقوق في القصر إلى المشهد المفتوح وإلى الفضاء. لقد غير مسار النهار شكلها واتجاهها، لكن مازال القصر كله يومض من الداخل إلى الخارج باتجاه الشمس. فالطائر الذي يرتبط طيرانه سريعاً بالقصر، مازال يصنع فتحات فولاذية عبره. لا يقترب أكثر مما فعل المرة الأولى.

قصر الجليد لا يبحث عن أي شيء، فهو يرسل الضوء تقريباً من غرفه المفككة. هذا مشهد لم يشهده أحد. فالناس لا يمرون بهذا الطريق.

يرسل القصر ومضات من الضوء، والطائر لم يشق بعد نفسه إلى الموت.

مشهد لم يشهده أحد.

لن يستمر أطول الآن. سوف يسقط القصر. فما الذي سيفعله الطائر؟! لا أحد يعرف. سوف يرتفع الطائر مثل نقطة سوداء إلى السماء، جامحاً في الخوف، حينما يتحطم القصر ويسقط.

تتسلق الشمس سريعاً وتصير أدفأ. ثم يبدأ مستوى النهر في الارتفاع أيضاً. وتكتسب المياه المنزلقة شكل دوامات صفراء وبيضاء، إنها تلعق

بجرأة أكثر الحافة الشريطية لضفتيه، وحينما تصب في النهاية فوق الرف وأسفل إلى أعمدة القصر، تنطلق سحابة من الرذاذ بصوت فظ. وتستشعر بداخل القصر الرعشة الأولى للموت.

تصير الشمس أقوى في كل يوم. يصبح المنحدر متحرراً من الثلوج إلى جانب الجليد. لكن الجدران الجليدية مازالت تقف في ضوء الشمس، لم تعد جزءاً من المشهد، هجرتها الثلوج التي عجزت عن الاحتفاظ بها.

تغير لون القصر ببطء. فالجليد الأخضر اللامع صار أبيض اللون في دفء الشمس. وغدت الجدران والقباب الشفافة معتمة بعد أن امتلأت بالبخار الذي يحجب كل ما تحويه، وتجذب غطاء معتماً فوق نفسها وتخفيه. يسحب القصر كله اللون الأبيض فوق نفسه، ويبدأ في الذوبان عند السطح. ومازال بالداخل يطن بقسوة. لم يعد الجليد يبعث بضوئه فيما بين الحقول، لكنه يسطع أكثر بياضاً من ذي قبل، يسطع في هدوء. فالقصر الجليدي الهائل كتلة بيضاء مفردة في مشهد ربيعي بني وأسمر ضارب في الصفرة؛ لقد جذب غطاء فوق نفسه وأغلق عليها يقاوم سقوطه.

٤

ذوبان الجليد

بدت سيس كأنها تقف على جليد يذوب. كانت هناك طوافات رمادية وتراكمات جليدية من حولها. جرى أحد الشقوق السوداء عبر البحيرة الكبيرة في إحدى الليالي، في الصباح تنفست المياه طويلاً وبعمق من خلالها، وفي الحال حط طائر يغمس منقاره ويشرب على الحافة. سرعان ما صارت هناك عدة فتحات أكثر، وبدأت طوافات جليدية تتحرك بدون أن تكون قادرة على أن تتقدم؛ لم يُفتح المخرج بعد.

فكرت سيس في القصر، في الشلال. إن ما حدث في زيارتها الأخيرة أخذ تعقيدات مختلفة بعد محادثتها مع الخالة؛ لابد وأنه كان هلوسة. كانت فوق الحافة قريباً جداً، فقط حينئذ استطاعت أن تتخيل صفقة رابحة.

كان القصر مختلفاً أيضاً، منذ محادثتها الخجولة مع الولد. لقد أثارت في الحقيقة رغبة جديدة للذهاب إلى هناك. كانت محادثتها مع الولد مسجلة في عقلها، منقوشة على مخطوطة خالدة. ربما هي لم تعرفه بالتأكيد أفضل مما تعرفه الآن، ومع ذلك...

صنع الولد قصراً مختلفاً ـ كأنه كان من أجل الرجال حينما وقفوا هناك في الليل. مرة أخرى كان من أجل هؤلاء الرجال في الليل.

قال الولد إن النهر في فيضان. والقصر أبيض. سرعان ما سيسقط.

وقف القصر يرتعش في التيار المتلاطم. سوف يتحطم. لقد فتنها. شعرت أنها ينبغي أن تذهب هناك.

شاهدت في هذه الأثناء صدعاً وراء صدع يظهر في الجليد الرمادي السميك على البحيرة. ركدت المياه رمادية على المشهد المكشوف الهاجع. لا اخضرار بعد. كانت كتلة الثلوج في الجبال هائلة؛ يقترب فيضان عظيم من الماء. حينئذ سيسقط القصر. كان هناك شيء ما ساحراً محزناً في التفكير: في يوم سيفوح منه النقاء ويكتسي بغلالة من الضباب ـ حينئذ سوف ترتج الأرض.

لا نهج معمول به في المدرسة. لكنه بدا معلقاً في الهواء: سريعاً سيكون افتتاحاً. كان من المفروض أن يأتي من سيس، لكنها مازالت تحتفظ بمسافتها. بعدئذ، في أحد الأيام، نظراً إلى أنها لم تستجمع شجاعتها، وجدت قصاصة مكتوبة على درج مقعدها: «أليست الأشياء كما اعتادت أن تكون سريعاً، سيس؟»

لن تنظر حولها لتحاول أن تجد من كتبها؛ بدلاً من ذلك انحنت أكثر في درجها. ربما كانوا يتلصصون على مساراتها؟

كانت سيس تحت الملاحظة الضمنية. لكنها كانت تقترب بشكل مفتوح أيضاً. ربما كان الولد الذي ساندها ووقف إلى جانبها في أحد الصباحات بمفرده. ربما هم من أرسلوه، وربما كان هناك لحسابه الخاص.

«سيس...»

كانت ودودة. سألت: «هل هناك شيء؟»

أجاب وهو ينظر إلى عينيها مباشرة: «نعم. لم تعد الأشياء كما اعتادت أن تكون من قبل».

شعرت بالرغبة في أن تلمسه، أو بالأحرى بالرغبة في أن يفعل هو شيئاً ما من هذا القبيل. لكنه لم يأت بأية حركة.

قالت سيس على غير رغبتها أكثر مما يبرر تعبيرها: «لا، لم تعد كما اعتادت أن تكون، وأنت تعرف بالتأكيد السبب».

قال بعناد: «يمكن أن تكون كما اعتادت أن تكون».

«هل أنت واثق من ذلك؟»

«لا، لكن يمكن أن تكون كما اعتادت أن تكون تماماً بالطريقة نفسها».

كانت سعيدة لأنه قد قال هذا، ومع ذلك... ظهرت غمازتيها، لكن توقفت سريعاً، وتصرفت كالمعتاد.

سألت بغباء بدون تفكير: «هل أرسلك أحد؟» كان يجب أن تقول، هل أخبرتك بقيتهم أن تقول لي ذلك؟

أجاب مستاء: «لا!»

«لا، بالطبع لا».

«أستطيع أن أفعل أشياء مثل هذه بمفردي».

«نعم، أعرف ذلك».

لكنه كان بالفعل غاضباً، ولم يقل شيئاً، لكنه فجأة تحول بعيداً.

كان هذا هو الحدث الصغير الذي أعطاها دفعة. كان عليها أن تفعل شيئاً في الحال الآن، تأخذ الخطوة، تهزم شعور الخجل الذي لازمها تجاههم ـ ومع ذلك كانت شغوفة لأن تشعر بمثل هذا الخجل. على كل حال، هي قطعت نفسها عنهم. كان من المريح أن تأخذ بنصيحة الخالة، فمن خلفها الآن كان ينبغي لهذا أن يحدث.

أتاح لها القصر في الشلال الفرصة لأن تظهر لهم بوضوح كيف هي تشعر الآن. سوف تستدعي بنفسها الموضوع المحرم. كان الجليد يستعد لأن يتحطم، قال الولد، وأرادت هي أن تراه قبل أن يكتسحه النهر بعيداً.

في يوم السبت، ظهرت سيس في فناء المدرسة بطريقة جديدة، وقالت للدائرة المنتظرة: «انظروا، لدي فكرة. هل نذهب غداً إلى قصر الجليد؟ فهو سيسقط سريعاً، هكذا سمعت».

سأل شخص ما بهدوء في دهشة، لكن بلهجة محفزة: «هل تريدين الذهاب؟»

اندهشوا جميعاً ووقفوا ينظرون إلى بعضهم البعض. ثم إلى قصر الجليد من بين كل الأماكن، المركز الفعلي لهذا الشيء الخطر المحرم عليهم أن يذكروه؟ ما الذي حدث لسيس؟ كان مكتوباً عليهم.

سأل شخص ما: «ما الذي سنفعله هناك».

أجابت سيس بهدوء وتأكيد الآن حيث بدأت: «الشيء الممتع الوحيد الذي نراه مرة أخرى قبل أن ينهار. قال شخص ما رآه إنه من الممكن أن ينهار في أي يوم الآن. أعتقد أنه يبدو أكثر غرابة الآن»، هكذا استنتجت.

كان للمجموعة قائد أو اثنان الآن. اثنان ليكونا المتحدثين في مثل

هذه المواقف. اندهشت سيس حينما رأت أن أحدهما الولد الذي ساندها وحماها، الشخص الذي يبدو أنه انبثق من لا مكان، وأبدى تعاطفه. يبدو الآن أنه قد أصبح القائد. كان القائد الآخر هو البنت التي احتلت مكان سيس. كانت هي من أخذت المبادرة.

سألت: «هل تسخرين منا يا سيس؟ هذا كثير ومفاجئ».

«بالطبع أنا لا أفعل».

قال الولد ليظهر معارضته: «نحن لم نتوقع أن تقولي شيئاً مثل ذلك، كما تعرفين».

«أنا أعرف».

قالت البنت: «نحن غير مصدقين حالياً أنك معنا مرة أخرى، لكن طالما أنت قلت ذلك، إذن...»

كانت سيس في وسطهم، حينما عادوا جميعاً إلى بيوتهم. لم تكن هناك ضوضاء. مشوا جميعاً، محتفظين بها في المنتصف. لم تنفر من ذلك أيضاً، تأكدت. كان غريباً وكم كان مثيراً أن تستطيع مثل هذه العودة الهادئة إلى البيت.

تساءلوا عرضاً في البيت عما كان يحدث؟ أخبرتهم عن ذلك في الحال؛ فقد جعلتها نضارة عودتها إلى البيت صريحة. لاحظت خلال المساء أنها كانت تجلس فيما بين الأم والأب. بدأ الأب يقول: «كنا ننتظر اليوم الذي تعودين فيه إلى البيت سعيدة».

قالت الأم: «كنا نعرف أن اليوم سيأتي. لم يكن من السهل أن نعيش هذا الشتاء بطريقة أخرى».

جفلت سيس. لكنهما لم يقولا المزيد.

ربما قد قالا نحن نعرف أنك فزت، وجعلوا الأمر محرجاً لها.

بالتأكيد هي سببت لهم التعاسة هذا الشتاء. لكنها تعرف ذلك جيداً جداً، واحتاجت أن تتذكر. كانت هناك فرحة في البيت الآن، لكن من غير الملائم أن تكون في صحبتيهما.

٥

نافذة مفتوحة

يتحرر المرء بمجرد كلمات. إنه يوم السبت مساء، وقد تقلصت هذه المشاعر التي أنعشتها حينما مشت إلى البيت مع المجموعة.

جلست سيس في الفراش تحاول أن تجهز نفسها من أجل الصباح، وكانت منفعلة جداً حول أنها لا تستطيع أن تجهز نفسها ولا أن تنام. تبدل التوتر والسعادة والقلق. رقدت بعينين مفتوحتين واسعتين في ضوء المصباح.

كانت تواجه النافذة؛ أُسدل عبرها ستار أبيض. رأت فجأة إحدى ضلفتي النافذة تتأرجح لتفتح. جنحت ناحية الظلام. ما هذا؟ لم يحدث المزيد. حركة خفيفة في الستارة، تماماً مثلما يحدث سحب في معدتك، ثم يعود كل شيء إلى السكون. لا رياح. لكن لابد أنها الرياح! لا يمكن أن يكون الخطاف مركباً ـ لكن يبدو أنها تتذكر أنها شاهدته هكذا. وكانت حجرتها في الطابق الأول من المنزل.

إنها النافذة التي تفتح بنفسها في المساء هكذا، أنت تظن مع نفسك أنها لم تفتح هكذا عبثاً لمجرد اللهو، أو بدون سبب على الإطلاق.

سرعان ما تملك سيس الخوف، وكانت في نقطة الاستدعاء من خلال الجدار. وقفت بنفسها. تركتهم يستمتعون بسعادتهم في سلام. فهم لا

يفعلون شيئاً إزاء ذلك.

تدفق هواء الليل من خلال الفتحة مثل طوفان بارد. حدقت في الفتحة السوداء عاجزة، بحيث يمكن أن تُرى من خلال الستارة. ما الذي يمكن أن يدخل؟ لا أحد. ليس الأمر كذلك. لا أحد يأتي من خلال الفتحات مثل هذا، إنها تفتح فقط.

أعدت نفسها وقالت: هذا هراء، وأنت تعرفين ذلك تماماً على وجه التحديد. بالطبع هي لم تفتح من تلقاء نفسها، هذا تصوري. ليس هناك خطاف فوقها، ولابد أنها مجرد عاصفة من الريح لم ألحظها.

لكنه أمر مزعج جداً أن ترى نافذة تتأرجح منفتحة بدون سبب. لا تعرف ما هي الحقيقة وما هو الخيال.

رقدت سيس متوترة وهادئة في الوقت نفسه. لا تخدير من الصدمة، لكنها جاهزة للمزيد، يجب أن يأتي؛ إن تركه يدمرها في الظلام هو الانتكاسة التي تعاني منها.

هرولت أفكارها. غداً يومي الأخير، ومض الخاطر في ذهنها. هذا هو السبب في أن النافذة فُتحت. هناك شيء ما يخص قصر الجليد غداً. شيء ما سيحدث في القصر. يمكن للخوف أن يشبه صوت فرقعة في مصرف متجمد. شعرت بأطرافها غريبة منفصلة عنها.

كنت أنا من فكرت في هذه الرحلة لهم؛ لم أجد صعوبة في إقناعهم أن يأتوا. لكن شيئاً ما خطأ سيحدث في قصر الجليد غداً.

إنه اليوم الأخير. الكتلة الضخمة من الجليد تهتز. النهر يضربه، وسوف يحطمه.

استطاعت أن ترى كل ذلك. انفعلت المجموعة كلها، ركضوا هنا وهناك ـ رغم أنهم لم يشاركوها تجاربها السرية. سوف يتسلقون كل هذا، يخرجون إلى السطح على القباب الجليدية. سوف تنادي عليهم تحذرهم من خطر الهدير المرعب! لكنهم لن يسمعوها. سوف يتسلقون إلى السطح، وهي نفسها سوف تتسلقه أولاً حينما تحين النقطة. سيشيرون لبعضهم البعض بجموح على القمة التي كانت خطراً، وتتسلق أعلى، لكن ستكون هي اللحظة كما عرفتها؛ كان هو القصر والنهر اللذين ينتظران، عرفته من قبل، الآن سيتحطم. سيقفون على القمة، لقد جذبتهم جميعاً إلى هذا الرعب، ستتفتح هذه الصدوع المتشققة تحت أقدامهم، سيترنح القصر ويسقط إلى الأمام تحت ضغط المياه، وهم جميعاً على قمته، إلى أسفل حيث القناة التي تغلي، وستكون تلك النهاية. إنها قد عرفت كل هذا لزمن طويل منذ اللحظة التي وقف فيها هناك الرجال بأغنيتهم الكئيبة الحزينة.

عندما ثبتت عينيها على فتحة النافذة هذه اتخذت لها شكلاً في عقلها. ليست لديها صعوبة في اختراعها، كانت هناك، رأت على وجه التحديد ما سوف يحدث اليوم التالي. ليس في ذعر، لكن كمشاهدة أكثر غرابة ـ على الرغم من أنها كانت ضمن المشهد نفسه.

هل سأذهب لفعل ذلك غداً؟

هل يجب؟

لا، لا!

كانت هناك أنفاس تنبعث من الفتحة الساكنة. لم تذهب وتغلق النافذة مرة أخرى. لم تعد بعد خائفة من الظلام، لكنها في الوقت نفسه لم تستطع أن تواجه بالوصول إلى النافذة ومد ذراعها.

أنا لست خائفة من الظلام، هكذا قالت للخالة عند الفراق، وفي هذه اللحظة لم تكن خائفة.

ينبغي أن أخاف على كل حال. لن أذهب لإغلاق هذه النافذة.

لديها زوج من المعاطف معلقين في خزانة ملابسها. أتت بهم ومددتهم على الفراش حتى لا تبرد من التيار الهوائي الناجم عن الفتحة الفاغرة. لا تستطيع أن تدير لها ظهرها، أو تطفئ المصباح. لا تستطيع أن تبقى في الظلام وهي تعرف أن النافذة مفتوحة، رقدت تنظر مباشرة عليها حتى لم تعد تتذكر شيئاً آخر.

٦

عازفو آلات النفخ

كان صباح الأحد بارداً جداً قبل أن تتمكن الشمس من تأكيد سطوعها. وهناك طقطقة خفيفة للقطرات المتساقطة للمياه المتجمدة على الحقول الرمادية، حينما خرجت سيس من البيت. لقد اتفقوا على أن يتقابلوا مبكراً جداً من أجل رحلتهم إلى القصر عند الشلال.

لم تستدر وتنظر على بيتها ـ فالليلة التي قضتها مؤرقة عاجزة لم تؤثر عليها إلى هذا الحد. يومي الأخير؟ هراء. الآن هو الصباح، والمرء يفكر بطريقة مختلفة.

لكن بالنسبة لها كان هو توتر الصباح.

إن المياه التي تجمدت، هي فقط الزخارف الفضية الهشة التي تتشكل فيما بين الحشائش العشبية في ليالي أبريل. لا يبدو أن المياه قد توقفت، فقد تركت آثارها على كل شيء. ملأت كل وجود، توالت في كل الجداول والأغادير. ولا يكون غناؤها صافياً أبداً هكذا إلا في صباح يوم الإجازة، مهما كان السبب. كانت البحيرة الكبيرة مترعة بعد الذوبان، يغطيها الضباب، وطوافات جليدية كبيرة وصغيرة تطفو على سطحها، ويغطى السواد شواطئها. وفيما وراء ذلك كله، وإن لم يكن مسموعاً من هذا البعد، يتدفق النهر العظيم، يرعد بقوة عملاقة.

رعد مثل هذا الذي كان مألوفاً لدى سيس، وهو الذي كانت على وشك البحث عنه في خوف وذعر.

أي شيء فيما عدا التوقف. إثارة الفوران، إثارة الرائحة المنبعثة من الأرض الرطبة. ارتعش قلبها وهي تمشي فيما بين كل ذلك. جاءت النغمة اللينة المحرضة لعازفي آلات النفخ، أوقعت سيس في شباك سحر حزين يبعث على الفرح.

نحن عازفو آلات النفخ، مبهورون بالأشياء التي لا نستطيع أن نقاومها.

كل شيء عارٍ وجديد. تقف صخرة في طريق المياه الجارية. إنها تلتصق ثابتة بدونٍ حركة مثل فأسٍ مرفوعة تقسم اللحظات فيما بيننا حتى نستطيع الوصول إلى هناك سريعاً بما يكفي. نحن مُتوقعون. طائر صغير أحمق يغطس باتجاه الصخرة، ويكمن في نبات الخلنج، ثم يرفرف ولا يظهر ثانية.

نحن مُتوقعون. نحن فيما بين السيقان البيضاء لشجر البتولا، قبل أن نتحقق. لحظة واحدة، كنا في طريقنا، الآن نحن هنا. نحن مُتوقعون. الوقت المختصر المتروك لنا سوف نقضيه هنا.

يمر طائر من فوق. يغوص الطائر الأرعن المزركش بالبتولا في البحيرة. وقتنا القصير.

قالت سيس لنفسها: سأعود اليوم إلى الآخرين.

هل هذا هو السبب؟

ما هو السبب؟ بدا السؤال أنه يتصاعد في مقابل جدار أصم.

لم يكن واضحاً لماذا.

خرجت سيس مبكراً جداً حتى أنها اعتقدت أنها ستكون الأولى في مكان المقابلة. سيسهل عليها هذا الأمر. كانت عائدة إلى الآخرين بعد أن أغلقت على نفسها بعيداً عنهم، لهذا السبب أرادت أن تقابلهم واحداً إثر آخر حينما يصلون. فالتحرك باتجاه الجمع الكلي، سيحتاج مزيداً من الشجاعة ربما أكثر مما لديها.

لكن بمجرد أن وصلت، كان هناك شخص ما آخر فكر في التواجد أولاً، وقد كان. حينما وصلت سيس، كانت البنت القائدة المتحفظة هناك بالفعل. وبدون كلمة، وبدون أن يظهر أي أحد أنه يعرف لماذا، اتخذت موقف السيطرة بمجرد أن بدأت سيس تقف إلى جوارها في المدرسة. كانت نشيطة وحازمة، وسرعان ما لاقت القبول. وقفت سيس تراقب ذلك، ثم بدأت تشتاق إلى صحبتها، لكنها لم تقترب منها أبداً. الآن هي تقدمت نحوها في ثبات، وأومأت إليها، صباح الخير.

قالت سيس: «أنت هنا بالفعل؟»

«أستطيع أن أقول الشيء نفسه».

قالت سيس بصراحة: «أعتقد أنه سيكون من الأسهل أن أكون هنا حينما يصلون».

«نعم، أسهل بالنسبة لك. أخمن ذلك. هذا هو السبب أنني خرجت مبكرة. أردت أن أقابلك قبل أن يصل الآخرون».

قالت سيس في مقابل حكمها الأفضل: «عما تتحدثين؟»

«أوه، أوه، أنت تعرفين أنه عنك».

نظرتا إلى بعضهما البعض مؤقتاً. لم تكونا عدوتين، كلاهما تراقب. تراجعت سيس بأشواقها للخلف إلى مجرد الصحبة؛ فهذا سوف يأتي فيما بعد، إذا لم يكن في كل الأحوال. شعرت أيضاً أنه ليس لديها اليد العليا. لكن وجه البنت كان متوتراً بصورة غير معتادة؛ كان دائماً لطيفاً ووديعاً».

«كان لطيفاً أن نعود إلى البيت معك بالأمس سيس. أظن أن كل شخص يشعر بذلك».

«لم تقل سيس شيئاً.

«أنت أيضاً».

قالت سيس بلطف: «نعم».

قالت البنت وهي تحاول أن تقوي نفسها: «لكنك لا تستطيعين أن تخرجي من الأمر بسبب ذلك».

«أخرج من ماذا؟»

«أوه، أظن أنك تعرفين. يجب أن تتحدثي عن ذلك قبل أن يأتي الآخرون».

كان صوتها متوتراً. أصرت: «لم يكن الأمر لطيفاً معك هذا الشتاء، سيس».

احمرَّ وجه سيس.

أصرت البنت: «لماذا تفعلين ذلك؟»

تلعثمت سيس: «أنا لم أكن ضد أي أحد لم يكن الأمر كذلك...»

كانت على وشك أن تقول إنها وعدت، لكنها تذكرت أن البنت تعرف هذا جيداً. لابد وأن كل فرد قد سمع عن الوعد. لا فائدة له الآن. قالت البنت الجذابة إلى سيس: «شعرنا كما لو أنه كان ضدنا أيضاً. بالتأكيد تستطيعين أن تبقي معنا؟»

كانت عينا البنت رافضتين بسخرية.

طأطأت سيس، وأجابت: «لا أعتقد أنني كنت أستطيع ذلك، وكذلك لم أفعل أيضاً».

«وبقيت بعيداً تماماً كما فعلت هي».

انفجرت سيس غاضبة: «لا ينبغي أن تتكلمي عنها! إذا ذكرتها سوف...»

الآن كانت هي البنت القائدة التي تورد وجهها وحزنت وتأتأت متلعثمة: «لا، بالطبع لا! أنا لم أقصد...»

لكنها سحبت نفسها سريعاً. فهي قد عرفت أن المجموعة التي كانت قائدتها لا تخجل من شيء في هذه المسألة. لقد أجرت سيس هذا الاختبار حديثاً وتعلمت الدرس منه. سحبت نفسها ونظرت بهدوء على سيس.

أحست سيس بالقوة تشع منها، شعرت بقوتها. كانت مخفية، لكن هذا الشتاء قد برزت بالطريقة نفسها مع الولد الذي ساندها.

قالت البنت: «لا يجب أن تبالي بقولي هذا».

«لا».

«هل أنت متأكدة؟»

أومأت سيس. فكرت، ينبغي أن نكون معاً.

سألت البنت بحذر: «ما الذي تريدين أن تُريه لنا هناك؟»

«في الجليد؟»

«نعم، لابد أن هناك شيئاً ما».

أجابت سيس بوهن: «يوجد، لكنني لا أستطيع أن أخبركم عن هذا. ينبغي أن تأتوا بأنفسكم».

«يبدو كل شيء غريباً عندما تتحدثين عن ذلك».

«لا أحد منكم قد رآه، أليس كذلك؟ فأنتم لم تكونوا هناك تلك الليلة، أليس كذلك؟»

قالت البنت بخجل: «لا».

وساد الصمت حيث وقفتا هناك معاً. نحن سنقف هنا لزمن طويل.

قالت البنت: «أتوقع أن يكونوا هنا سريعاً».

«نعم».

«ما الأمر؟»

كانت سيس عصبية ومتوترة. نظرت سيس إلى الفتاة التي تبدو غريبة تقف هناك، العمر نفسه تقريباً مثلها. سوف ننظر إلى بعضنا البعض في المرآة! هكذا فكرت بالصدفة. سألت، ما هي المسألة؟ سؤال في اللحظة الفعلية التي كانت فيها فاقدة الاتزان، مشوشة من صحبتها لأن الشيء نفسه كان يحدث ثانية. قالت سيس: «نعم، أنت تري...»

انتظرت البنت.

بدأت سيس مرة ثانية.

«أنت ترين أن الكثير جداً من الأشياء المستحيلة تحدث».

«نعم، سيس».

ليس كثيراً. فقط: نعم، سيس. مضت هذه العبارة مباشرة إلى القلب. يجب أن نكون معاً بكيفية ما.

في الحال، حضر طيف شبح هائم فيما بينهما. بادرت وقالت بتهور: «لكنك لا يجب أن تأتي إلي!»

«ماذا؟»

«ولا ينبغي أنا أن أذهب إليك!»

قالت سيس بجموح: «»أو إنه سوف يحدث كله مرة أخرى».

أمسكت البنت القائدة سيس بقوة: «الآن لا تغيبي مرة أخرى، نحن معك. لا ينبغي أن تذهبي بعيداً الآن».

أحست سيس فقط بالقبضة المباركة.

«هل تسمعين؟»

قالت سيس: «نعم».

تركتها البنت القوية تمضي. لا يمكن أن يستمر طويلاً. تحولت سيس من منتصف الطريق، قطعت غصين صفصاف والتقطت براعمه. كانت هناك ثرثرة خلف الأشجار مباشرة، وبالرغم من كل شيء شعرت بما يشبه التحرر.

قالت البنت الصارمة سريعاً: «ها هم بعض الآخرين. أنا سعيدة...»

«وأنا كذلك».

أحاط بهما ثلاثة أو أربعة من الآخرين الذين وصلوا بوجوه سعيدة.

«مرحباً، سيس».

«مرحبا».

لم تسفر خطة سيس لمقابلتهم فرداً فرداً عن شيء. البنت القائدة جعلت الأمر مستحيلاً.

وصل باقيهم، وبدأوا.

لم تقل البنت الكتومة شيئاً، فقط اختلطت بالمجموعة. كان أحد الأولاد يقود الطريق. لابد أن سيس قد لاحظته. وبدون أن تكون منتبهة بالكامل له، تزلجت إلى جواره لفترة. لقد تحول فوقها ليحميها بعطف شديد في أحد الأيام التعيسة. ومنذ ذلك اليوم أصبح القائد. وكان موجودًا في المحيط في مناسبات أخرى أيضاً، لكنها لم تكن مثل هذا اليوم في الحماية.

وجدت شيئاً لتقوله.

«هل هو أنت من تعرف أقصر طريق؟»

أجاب سريعاً: «نعم».

«هل عرفت هذا الطريق كثيراً؟»

قال مرتبكاً، في صد: «لا».

تراجعت سيس إلى الخلف.

كيف ينبغي أن أتصرف اليوم؟

تشعبوا خلال الغابة، يتفرقون ويتجمعون ثانية. لاحظت سيس كيف جعلوها مركز الاهتمام، وخجلت من ذلك. لكنها لم تكن منزعجة. بدا أن الفتاة الشديدة قد اختفت، لم تستخدم شيئاً من سلطتها. ظل الجزء الأعظم من الآخرين على مقربة من سيس، لم يقولوا الكثير، لأنها كانت نزهة مهيبة، وأرادوا أن يظهروا أنهم مدركون لهذا.

لم يدع أحد نفسه يذهب. إذا بدأ أي شخص يحدث ضجيجاً كان يوقفه عداء صامت يفهمه. عرفوا جميعاً أن هذا كان حجاً تذكارياً.

عرفوا أن القصر الجليدي يقوم مقام شيء خاص بالنسبة إلى سيس. كانت سيس ذاهبة إلى هناك، وأرادتهم أن يأتوا معها لسبب ما. قبلوا بذلك، وهذا هو السبب في أنها لم تكن رحلة تزلج عادية، بل مناسبة جليلة.

وصلوا الآن الوادي إلى الأول.

سوف يذهبون مباشرة عبر الأودية الصغيرة اليوم. أصبحت الشمس قوية، وبعثت الدفء في نبات الخلنج والحشائش الضعيفة من السنة الماضية. كانت الرائحة تشبه صباحاً سحرياً حينما يكون المرء صغيراً، والآن هي تخيم ثقيلة على تلك الأودية. ومع ذلك لم يكن المرء يعرف ذلك. كان هناك القليل من تلك الرائحة. تحركوا بشكل مهيب، لكن النغمات الخفيضة لعازفي آلات النفخ جعلت عيونهم جامحة.

ظلت سيس في المركز. إذا حاولت أن تنتقل إلى أحد الأجناب تجمعوا حولها مرة ثانية. نظرت على البنت القائدة الشامخة الصامتة، وفكرت: «لا يجب عليهم».

في الوادي الأول. ثم أعلى المنحدر، وهناك على التل، عرفوا أنهم يستطيعون أن يروا الشلال من بعيد. أسرعوا إلى أعلى المنحدر من أجل هذا السبب.

وكان هناك. وقف قصر الجليد بعيداً جداً، أبيض في إطار من حقول الربيع المظلمة. لم يتحطم من مياه الفيضان.

شعرت بعينيها تنظر إليها.

سألت: «هل سنأخذ أنفاسنا هنا؟»

لم تحتج ولم يحتج أحد من هذه المجموعة المختلفة، بل جلسوا لفترة، ونظروا باتجاه القصر والشلال.

لم يكن ذلك صحيحاً؟ كان الولد الذي قاد إلى الطريق واقفاً أمامها، يسألها بصوت منخفض: «هل سنرجع من هنا؟»

اندفعت: «نعود؟»

هل فهم بصورة صحيحة؟ هل أراد أن يتجنب شيئاً ما؟ لم تكن متأكدة.

«لماذا تسأل هكذا؟ بالتأكيد نحن لن نعود؟»

قال: «لا، لكن في هذه الحالة هل يمكن أن نسرع؟»

«بالطبع».

لم يكن هناك انصراف بعد للمجموعة. كانوا يتزلجون على الطريق نفسه كما من قبل، مرتبطين بالحدث غير العادي. وبالطريقة نفسها، مر الموكب إلى الوادي الثاني. انزلقت الأرض بشكل حاد إلى أسفل. اختفت الرؤية في الحال.

لكن هذه المرة من أجل سيس.

تزلجوا بهدوء وفي صمت. فكل شخص اعتاد أن يراهم كل يوم في فناء المدرسة، لا يصدق أنهم الأشخاص أنفسهم.

يجب أن يكون الآن سريعاً.

ما الذي سيكون سريعاً؟

شعرت سيس بالتوتر في الوادي الثاني. عرفت نتيجة هذا الذي سيكون، لم يكن هناك طريقة لتجنبه. تذكرت أنها تريد أن تكون في هذه الشبكة التي تورطت فيها.

أخبرت نفسها بعصبية بما كان يحدث: أنا سأعود إلى الآخرين.

وفي هذا الوادي أيضاً، كان هناك غدير للقفز عبره. وثبوا فوقه. لم يكونوا في مزاج يسمح بالتأخير، وأسرعوا أعلى المنحدر مرة أخرى، إلى النقطة التي استطاعوا منها أن يروا هدفهم مرة ثانية، وعن قرب أكثر.

اعتزموا أن يمضوا بشكل احتفالي، لكنهم كانوا في هذه العجلة حتى أنهم ركضوا تقريباً في الجزء الأخير، كما لو أنهم مجبرون أن يصلوا هناك في التوقيت المناسب قبل أن ينهار القصر الجليدي. ركض عصبي.

الآن بإمكانهم سماع هدير الشلال، ليس عالياً أسفل قمة التل، لكن كما لو كان يلف القمة ويهبط ليقابلهم.

أعلى على قمة التل، استطاعوا أن يروا القصر الأبيض بوضوح، مازال بعيداً نوعاً ما، لكنه هائل. إنه لا ينتمي إلى هذا العالم، لكنه مازال يقف هناك لفترة طويلة غير محتملة، شاهقاً أمام سيس.

كانوا يقظين تجاه سيس. أثر المشهد فيهم جميعاً. أتت إليها البنت التي كانت القائد وسألتها بصوت خفيض: «هل تريدين أن نعود؟»

لابد وأنهم كانوا مقتنعين كلهم بأن سيس خائفة من هذا. كان هنا السؤال للمرة الثانية.

«لا، لماذا؟»

«لا أعرف، تبدين غريبة بعض الشيء».

«أنت تتخيلين ذلك. ألا تريدون جميعاً أن تذهبوا هناك؟»

«إنها رحلتك، في نهاية الأمر، أنت تعرفين ذلك».

«نعم». يجب على سيس أن تعترف بذلك.

«لذلك نحن لا نكترث إذا أردت العودة من هنا. فأنت بالفعل تعرفين ماذا تفضلين».

«لا، ليس الأمر كذلك، أنا أقول لكم».

نظرت سيس عاجزة مع القائدة الحازمة صافية الذهن التي لم تعرف شيئاً عن الذكريات التي عاشتها مع قصر الجليد.

«وهو كذلك، طالما أنت تريدين». تحولت البنت إلى الآخرين وقالت إنهم سيذهبون مباشرة إلى الشلال، والنزهة هناك.

نزلوا إلى الوادي الثالث. ولم يركب أحد رأسه. مازالت المهابة لم تتبدد.

كانت الأرض وعرة بالأجمات وأغصان الأشجار أسفل الوادي

الثالث. لم يستطيعوا أن يحافظوا على تجمعهم وهم يختارون طريقهم إلى الأمام. كان الغدير المألوف المترع بالمياه موجودًا هنا مع بعض البرك ورؤوس صغيرة من الزبد.

وجدت سيس نفسها بمفردها خلف دغل ـ وفي الحال أتى شخص ما إلى جانبها. كان هو الولد الذي قاد الطريق، الآن لم يعد على رأس الموكب. نظرت في عينيه ورأت أنها كانت أكثر بريقاً من المعتاد. سألت بسرعة: «ماذا تريد؟»

قال: «لا أعرف تماماً».

شعرت بعينيه عليها طوال الوقت. قال: «لا أحد يمكنه أن يرانا هنا».

ردت سيس: «لا أحد في العالم كله».

قال: «دعينا نقفز عبر الغدير».

أخذ يدها وقفزا عبر الغدير معاً. كان الأمر غريباً، وحينئذ انتهى. أمسك بإصبعها الصغير لبضع خطوات بعد القفزة. كان هذا غريباً أيضاً؛ لاحظ أن الإصبع حفر لنفسه مكاناً في يده برفق. فعل الإصبع هذا طواعية.

انطلقا سريعاً، وأسرعا حول الدغل من أجل أن يلحقا بالآخرين.

وصلوا عند سفح القصر، كان قصراً هائلاً: كتلة بيضاء باهتة من الجليد، وكان الشلال يفيض. وتهب الرياح الباردة مباشرة من الشلال. اقتربت المجموعة على قدر ما استطاعت. اصطبغت ملابسهم سريعاً بلون الحرير الرمادي من تأثير الرذاذ الذي انبثق من منتصف القصر، وأمطرت ثانية. تذبذب الهواء.

فتحوا أفواههم للكلام، لكن أحداً لم يسمع كلمة واحدة، فقط ترى الأفواه تفتح في شغف. كانت رطبة جداً، وكذلك ساحقة تماماً. تراجعوا إلى النقطة التي يمكن الحديث عندها.

حلقة حول سيس. استحضروها طوال الطريق هناك، وفعلوا ذلك بنجاح. وقفوا جميعاً يرسمون هذا التعبير على وجوههم. كانوا أنفسهم واقعين تحت تأثير الكتلة الهائلة والظروف التي جاءت بهم إلى هناك.

كانت سيس مجبرة على التفكير في هؤلاء الرجال الذين وقفوا هناك. امتزج غناء اللحن الحزين مع الهدير. لقد تطور وتغير مع مرور الزمن: تذكرت الآن بوضوح أنهم قد أنشدوا.

الآن، قد مضى هذا. هل كان عبثاً؟ لا، لا، لم يكن عبثاً؛ إنه لن يُنس أبداً من هؤلاء الذين وقفوا هنا في تلك الليلة.

لكن القصر الجليدي سرعان ما سيتدمر، وحينئذ سيبدو تماماً مثلما كان من قبل، فقط الشلال الوحشي هو الذي لا يعبأ بأحد، يملأ الهواء ويهز الأرض، ولا ينتهي أبداً.

كل شيء سيجري كما حدث من قبل، سيس.

جذبها شخص ما من ذراعها ـ بينما وقفت تتألم مع أفكارها التي لم تستطع أن تتحرر منها.

«سيس، ألا تريدين أن تأتي وتأكلي؟»

«أنا آتية».

تنبهت، ووجدت حلقة من وجوه صديقة. أظهروا كلهم أنهم يريدونها. والآن هم تخلوا عن الناحية الرسمية.

في لحظة كانوا يسرعون إلى صعود المنحدر في وسط الرذاذ ليتسلقوا إلى قمة الجليد. على المنحدر، استطاعوا أن يروا القصر ممسكا بضفتي الأرض بمخالب عملاقة من الجليد حول الأحجار وفي الفتحات وحول الأشجار. ومع ذلك، فالشلال سيكون قوياً بما يكفي لأن يمزقه ويفكك أوصاله. كانت عملية التمزيق تجري على قدم وساق ولابد أنها وصلت ذروتها الآن، لكنها لم تكن مرئية: كانت حرب التمزيق التي يستحيل تخيلها تجري طوال الوقت.

وعلى قمة الجليد، كان الشيء نفسه مثل أي مكان آخر: أبيض ومحفور من الشمس، ولا بقعة شفافة واحدة.

تعالى صوت شخص ما فوق الضجيج: «هل تظنون أننا يمكن أن نصعد فوقه؟»

بدأت سيس وتذكرت ما فكرت فيه جيداً عندما كانت ترقد في فراشها.

قالت: «لا يجب، إنه خطر»، لكن أحداً لم يستمع إليها في هدير الشلال.

«نعم، نستطيع!»، هكذا صاح الولد الذي قاد الطريق، ووثب أمام عيني سيس.

اندفعوا جميعاً إلى الخارج. كانت سيس هناك أيضاً قبل أن تتأكد من الذي تفعله. وبمجرد أن وضعت قدمها عليه شعرت برعشة في الكتلة الضخمة.

صاحت بصوت عالٍ على قدر استطاعتها: «ألا تشعرون بهذا؟»

لم يسمعوا شيئاً. كانوا كلهم يصيحون بصوت مرتفع.

ضجيج كلي.

«هوراي!» صرخ شخص ما، صيحة بلا حدود بأنهم ربما كانوا يقفون على قصر الجليد المفكك، يسبحون معه إلى أسفل على الرغوة التي تغلي. «هوراي».

لمعت عيونهم بشكل غريب. زحفوا إلى القمة، فيما بين القباب في الأخاديد. كانوا قليلي الحذر، لم يكونوا غافلين بالكامل عن الخطر، يعرفون أنهم ما كان يُسمح لهم أبداً أن يفعلوا ذلك إذا ما كان معهم أي شخص من الكبار. لم تعد سيس تحذرهم؛ كانت تستمتع بنفسها، عيناها تلتمعان أيضاً. ثم جاءت الفرقعة.

فرقعة عنيفة، بانج! انفجار أسفل منهم في الأعمدة: انفجار أو صدمة أو أي شيء يشبهه. ربما كانت ضربة مطرقة على ساعة احتاجت إلى من يقرعها. لكنه كان صدعاً، صدع يقوض الصوت. وفي خلال التوتر المستحيل الذي كان قائماً، انفصل قصر الجليد من مكان ما. كان أول إنذار للموت.

عالياً فوق ضجة الشلال.

تحول كل هؤلاء فوق القمة إلى اللون الأبيض ونشدوا اليابسة على القدمين أو فوق الأربع، أيهما أسهل. لم تكن لديهم الرغبة في التجول بعيداً مع الجليد حينما يجتاحه الدمار؛ أرادوا أن يعيشوا.

لا، لا! فكرت سيس أيضاً، عندما أنقذت نفسها. لكنها كانت أقرب ما يمكن أن يكون إلى ما تخيلته خلال الليل.

وبمجرد أن كانوا آمنين على الأرض، توقفوا عن أن يروا ما إذا كان

دماره سوف يكتمل. لم يحدث. لم يحدث المزيد. توقف الجليد. كان هناك فقط الانفجار الواحد! من الداخل، ثم الصمت. جاء النهر يصب كتلة فوق كتلة من المياه الجديدة من أعلى، لكن القصر صمد أمام الضغط.

نزلوا إلى أسفل مهزوزين نوعاً ما إلى مخارج الشلال ثانية، وبشجاعة مفرطة أيضاً، حيث إن الأمور جرت على خير. الآن لديهم شيء ليتحدثوا عنه فيما بعد. لم يكونوا مستعدين للذهاب. فقصر الجليد مازال قابضاً عليهم. مازالت عيونهم تبرق.

برقت ناحية سيس أيضاً، لكنها لم تستطع أن تقابلهم. لقد سرى المزاج الجامح من القمة، ألم يستطيعوا أن يفهموا أنه كان من المستحيل أن يبقوا هناك؟ لا، لم يستطيعوا، لم يكن لديهم مبرر ليفعلوا هذا. بالنسبة لهم كانت مغامرة.

هل قرأوا تعبيرها، وكانوا محبطين منها؟ لكنهم ينبغي أن يروا كيف أنه من المستحيل أن يبقوا هنا. إن الهدير الأبدي للشلال ملأ عنان السماء وجنبات الأرض، لكنهم مازالوا غير قادرين على أن يملأوا مسافة واحدة خالية. لم يعرف الآخرون ذلك، فهم قد رأوا المغامرة والتمعت عيونهم بها.

توقفت بعد فترة وقالت: «لا يمكنني البقاء هنا».

لم يسألها أحد لماذا.

جاءت البنت القائد، وسألت: «هل أنت ذاهبة؟»

«لا، فقط طريق صغير، فقط من فوق هناك، للابتعاد عنه».

«وهو كذلك، سوف نأتي جميعاً في دقيقة واحدة».

مشت سيس مبتعدة ببطء بين الأشجار، إلى حيث سيقودهم الطريق ليعودوا جميعاً.

لا، لا يجوز أن أبتعد عنهم الآن.

الآن أذهب إليهم.

مشت فيما بين الأشجار والشجيرات، وجلست على حجر. كانت الأخشاب بدون أوراق، والأشجار الهزيلة يمكن رؤيتها جذعاً فوق جذع على مسافة بعيدة. جلست سيس أسفل المنحدر الحاد، بحيث كان هدير الشلال منعدماً، لكن الهواء مازال يحمل ذبذباته. جامحاً ولا يتوقف. ممعن في التجدد. يتنقل بدون انقطاع. حينما يلحقون بي، ينبغي أن أحاول أن أكون مختلفة. كيف؟

جلست فوق الحجر وفكرت في المسألة لوقت طويل، تنتظر أن تسمع الانهيار العظيم خلفها، يخبرها أنه قد حدث الآن. لم يأت؛ فقط الهدير المنتظم كان يترجرج.

على أية حال قضي الأمر.

كل شيء قد انتهى هنا، ينبغي أن يكون.

اليوم بالفعل أنا سأحنث بوعدي.

إنه بسبب الخالة أفعل هذا، لأنني لا أستطيع أن أفعله. مازلت لا أعرف ما إذا كان ينبغي أن أفعل أم لا.

لكنني سأفعل.

شكراً لك يا خالة.

سوف أكتب إلى الخالة حينما أعثر على مكانها.

لم تُترك جالسة بمفردها لفترة طويلة. لم تحضر المجموعة، لكن فرع الشجرة الجاف انهار فوق الأرضية الناعمة من الأخشاب. ومر من خلالها خطان دقيقان: كانت البنت وهذا الولد. كلاهما كان قادماً. سقط الحمل بعيداً. وقفت على قدميها، احمرَّ وجهها قليلاً. هناك كانا كلاهما.

٧

القصر يسقط

لا يمكن لأحد أن يشهد سقوط قصر الجليد. إنه يحدث في الليل بعد أن يذهب كل الأطفال إلى فراشهم.

لم يتورط أحد بشكل حقيقي في أن يكون حاضراً. فانفجار مشوش بلا ضجة يمكن أن يسبب ذبذبة الهواء عن بعد في غرف النوم، لكن، لا أحد يستيقظ ليسأل: ما هذا؟

لا أحد يعرف.

الآن القصر، بكل أسراره، يذهب إلى الشلال. يجري صراع عنيف، ومن ثم ذهب.

هياج جامح في الفراغ، ليلة ربيعية نصف مضيئة ونصف باردة. تحطم تجاه لا شيء، من الأعماق الداخلية يمسك ما قد اهترأ وتفكك. قصر الجليد الميت يأخذ نغمة الصدى في ساعته الأخيرة، حينما يحرر قبضته ويتعين أن يذهب. توجد ضجة صاخبة في صراعه؛ يبدو أنه يقول: هو الظلام من الداخل.

إنه يتناثر من ضغط الماء ويتأرجح إلى الأمام إلى زبد أبيض من الشلال. تضرب الكتل الضخمة من الجليد بعضها البعض، وتنطلق

في قطع أصغر لتهيئ سكوناً للماء ليمسكها. إنها تحجز نفسها، تخترق الحجز ثانية، وتهوي فيما بين الضفاف الصخرية للقناة الواسعة، تطفو بعيداً وتختفي سريعاً تجول وتنعطف. تلاشى القصر كله من على وجه الأرض.

توجد فوق الأرض شقوق وندوب في ضفتي النهر، وأحجار مقلوبة، وأشجار مقتلعة، وأغصان لينة قد جُردت من لحائها.

تعثرت كتل الجليد مختلطة في الاتجاه السفلي للبحيرة، وانتشرت عبرها قبل أن يستيقظ أي فرد أو يرى أي شيء. هناك سوف يطفو الجليد المتناثر بحوافه الشائكة خارج سطح الماء، يطفو، ويذوب، ويتوقف عن أن يكون.